إبراهيم الإبياري

تأريخ القرآن

دار الشروق

تأريخ القرآن

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩-٣١٥١٠١ - برقيًا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيًا: شروق القاهرة - تلكس: 93091 SHROK UN

تمهيد

رسالة ورسول تَلَقَّتْهما الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرناً ، فبادهتهما بالتأبّي أولا ، ثم لم يمض غير قليل حتى تفتحت لهما القلوب ليّنة طيّعة ، وإذا عُداة الرسالة حُماة الرسالة ، وإذا خصوم الرسول يستأمرون بأمر الرسول ، وإذا هم داعون لهما فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا مع البيئة العربية بيئات وبيئات تُؤمن بتلك الرسالة وتؤمن بذلك الرسول ، وإذا رسالة هذا الرسول يستظل بظلها اليوم نحو من أربعمائة مليون ينتشرون فى أنحاء العالم شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا ، يحفظ عليهم هذه الرسالةَ الكريمة قرآن كريم فيه بيان وتفصيل .

ولم يكن شىء أحبَّ إلى المُسلم من أن يعرف رسوله ويعرف هذ الكتاب الجامع لرسالته ؛ من أجل هذا شُغف المسلمون منذ أن عرفوا الإسلام بجَمع كل ما يتصل بالرسول ، ثم مضوا يتدارسون هذا الذى جمعوه ، يُفيضون فيه ويَستوعبون ، كما جمعوا حول القرآن دراسات وعُلوماً تَجِلّ عن أن تُحصى، وتكثر عن أن تُعد .

وأصبح عزيزاً أن تَجد فى خِضمّ هذا الفَيض المُستوعب كلماتٍ عن الرسول مجموعات تصلك بحياته صلى الله عليه وسلم فى إيجاز جامع يعلو عن الاختصار المفوّت ويَهبط عن الاسترسال المُشتّت ، كما أصبح عزيزاً أن تجد بين هذه الكثرة الكثيرة من علوم القرآن كتاباً يُلخّص لك هذا كله فى يُسر ويُلم به فى غير عُسر . وقلّ أن تجد من ناشئتنا اليوم — بعد أن بَعدت بهم ثقافتهم شيئاً ما — مَن يملك أن يجيب نفسه بَلْه سائله عن الكثير مما يتصل بالرسول ورسالته .

لهذا أردت أن أقدم هذا الكتاب أخلص فيه شيئين :

١ — حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تلخيصاً يقف عند الإجمال الجامع ولا يعرض للتفصيل المشتت .

٢ — وأن أجعل هذا تمهيداً لتلخيص ثان مُيسّر مُبين يجمع كل ما يتصل بالقرآن الكريم .

وإن الحرص الذى جمع السلف على قراءة هذه المُطوّلات لواجدٌ حرصاً مثله سوف يجمع الخلف على قراءة هذه المختصرات ، فالناس بخير ما علموا فإن هم جهلوا ضلوا . وما أرغب الناس عن أن يجهلوا فيضلوا وهم يملكون أن يعلموا فيَسلموا . وأرجو أن أكون بالذى صنعت قد وفّيت وأرضيت .

ابراهيم الابيارى

القاهرة { شعبان ١٣٨٤ / ديسمبر ١٩٦٤

الباب الأول

١ – رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب « شَيبة » بن هاشم « عمرو » بن عبد مناف « المُغيرة » بن قُصى « زيد » بن كِلاب ابن مُرة بن كَعب بن لُؤى بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر ابن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة « عامر » بن مُضر بن نِزار ابن مَعدّ بن عَدنان .

إلى هنا ينتهى النسب الصحيح ، وما فوق ذلك فهو من صُنع النسّابين .

وأُمه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كِلاب بن مُرة بن كَعب بن لُؤى بن غالب بن فِهر . يلتقى نسبُها مع نَسب أبيه صلى الله عليه وسلم عند جدّهما الأعلى كِلاب بن مُرة .

ولقد مات أبوه عبد الله بالمدينة وأمه حامل به لشَهرين ، وكان

قد خرج فى تجارة فمَرض فعرَّج بالمدينة يسلِّم بأخواله من بنى النجار ، فأقام عندهم شهراً مات بعده عن خمسة وعشرين عاما .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول « ٢٠ أبريل ٥٧١ » على الصحيح[1] بالدار التى عند الصفا ، والتى كانت بعدُ لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ، وقد بَنتها زُبيدة مسجداً حين حجّت .

وكانت قابلته التى نزل على يديها : الشفاء ، أم عبد الرحمن ابن عوف .

وأرضعته امرأة من بنى سعد بن بكر بن هوازن يقال لها : حَليمة بنت أبى ذؤيب .

واسم أبيه فى الرضاعة : الحارث بن عبد العُزى ، من بنى سعد ابن بكر بن هوازن .

وكان إخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأُنيسة بنت الحارث ، والشَّيماء حُذافة بنت الحارث .

وحين بلغ محمد ستَّ سنين تُوفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء — موضع بين مكة والمدينة — وعمرها ثلاثون عاما .

---

(١) رسالة محمود حمدى الفلكى (١٠٣٣ هـ) الترجمة العربية طبعة بلاق سنة ١٨٨٩ م .

وبعد وفاة آمنة بسنتين توفى جده عبد المطلب ، وكان يكفُله ، وعمر محمد عندها ثمانى سنين .

فكان محمد بعد وفاة جده عبد المطلب مع عمه أبى طالب . وأبو طالب وعبد الله — أبو رسول الله — أخوان لأب وأم ، وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وحين بلغ محمد أربعة عشر عاما — أو خمسة عشر — كانت حرب الفِجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان . ولقد شهد محمد بعض أيامها ، أخرجه أعمامُه معهم يَنْبُل عليهم ، أى يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم به .

ولما بلغ محمد خمسة وعشرين عاما تزوج خديجة بنت خُويلد ابن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصى بن كِلاب بن مُرة — يلتقى نسبها مع نسبه فى جدها الأعلى قُصى ، كما يلتقى نسبها مع نسب أمه آمنة فى كلاب بن مرة .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها محمد ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ، وكانت سنها حين بنى بها محمد أربعين عاما . ولقد تزوجها قبل محمد رجلان هما : أبو هالة بن زُرارة التَّميمى ، وعتيق بن عائذ المخزومى .

وقد عرفت خديجة محمداً حين خرج فى تجارة لها إلى الشام فى رحلته الثانية مع غلامها ميسرة . وكانت رحلته الأولى إلى الشام حين خرج مع عمه أبى طالب وسنه اثنا عشر عاما ، حدثها ميسرة عن صدقه وأمانته فرغبت فيه وسعت إلى الزواج منه .

وولدت خديجة لمحمد أولاده كلهم إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية . فولدت له القاسم ، وبه كان يكنى ، والطيب « الطاهر » ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

ومات القاسم والطيب فى الجاهلية . وأدركت بناته كلهن الإسلام وأسلمن .

وحين بلغ محمد خمسة وثلاثين أخذت قريش فى تجديد بناء الكعبة وكانت قد أصابها حريق ومن بعد الحريق سَيل . وحين بلغت قريش موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يكون له الشرف فى وضعه مَوضعَه ، وكاد الخلافُ يثير بينهم حرباً ، ثم انتهوا إلى أن يكون الفصل بينهم إلى أول داخل عليهم من باب بنى شيبة . وكان محمد أول داخل عليهم من هذا الباب . فارتضوه حَكما فيما شَجر بينهم ، فبسط محمد رداءه ووضع الحجر عليه وأمر كُل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطراف الرداء ، حتى إذا ما استووا رفع الحجر بيديه ووضعه مكانه .

ولقد عرفت قريش محمداً صبيًّا فلم تعهد عليه ما تعهد مثله على الصبيان من إسفاف أو تدنٍّ، وعرفته يافعاً فلم تعدله نزوة أو زلة، ثم عرفته زوجاً فى سن مبكرة فعرفته أطهر الأزواج ذيلا.

وهو منذ أن درج بين أهله ووعى كان الصادق الأمين، لا يقول إلا صدقا، ولا يعطى أو يأخذ إلا أميناً حين يُعطى، أميناً، حين يأخذ. أميناً حين يُستشار ويُشير. والنفس إن ملكت الصدق والأمانة ملكت مابعدهما من كل ما هو محمود من الصفات، وهكذا كان محمد قبل أن يبعثه الله رسولا.

ولقد حُبب إلى محمد التحنّث والتحنّف شأن الصادقين عن متاع الحياة العازفين عن لينها المُفضى إلى الاستنامة إليها، فكان يعتكف فى حراء — جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال منها — شهراً من كل سنة يجعله خالصاً لعبادة ربه على مارسم إبراهيم، ومن بعده إسماعيل عليهما السلام.

وبقى محمد على هذا الذى أخذ به نفسه يختلف إلى غار حراء شهراً من كل عام إلى أن كانت السنة التى اختاره الله فيها رسولا لرسالته، وكان عندها فى الأربعين من عمره.

٢ ــ الجزيرة العربية قبل الرسالة

ولننظر فيما كانت عليه الجزيرة العربية قبل رسالة محمد .

فإلى الغرب والشمال من الجزيرة العربية كانت المملكة البيزنطية « الروم » وفى يديها مصر والشام ، وإلى الشرق والجنوب من الجزيرة العربية كانت مملكة الفرس وفى يديها العراق واليمن ، وكلتا المملكتين كانت طامعة فى السيطرة على الجزيرة العربية . وكانت بينهما بسبب ذلك حروب طاحنة امتدت حِقبة طويلة . ولقد أظلّ الإسلام الجزيرة والحربُ قائمة ، لم تَخمد نارها إلا مع العام الثامن والثلاثين بعد الستمائة .

وحين أخفق الروم فى بسط نفوذهم على الجزيرة حربا أخذوا يَنفذون إليها سِلماً ، فمدُّوا أيديهم إلى الغساسنة فى شمالى الجزيرة يجعلون منهم أعوانهم على هذا الغَزو السِّلمى ؛ وكما فعل الرومان فعل الفُرس فإذا هم الآخرون يمدون أيديهم إلى المنَاذرة ملوك الحِيرة فى الشرق يجعلون منهم أعوانهم على الوقوف أمام الغَزو الرومانى .

وإذ كان الروم نصارى لَقن الغساسنة طرَفاً من النصرانية ،

وإذ كان الفرس مَجوسا أخذ المنَاذرة بطرف من المَجوسية . وإذا النصرانية تَعرف طريقها إلى الجزيرة العربية عن طريق الشام ، كما التمست المجوسية طريقها إلى الجزيرة العربية عن طريق الحِيرة . وإذا الحرب التى كان يلتقى فيها السيف بالسيف تُصبح وقد التقى فيها الرأى بالرأى . يقف المجوس ومن ورائهم اليهود للنصارى ، ويقف النصارى للمجوس واليهود ، والجزيرة تشهد هذا الصراع فى الرأى فتشارك فيه موزَّعة بين المجوسية واليهودية والنصرانية ، ويزيد البيئة العربية توزُّعا توزعُ اليهود إلى ربانيين وقرائين وسامريين ، وتوزع النصارى إلى يعاقبة ونساطرة وأريوسيين . هذا إلى توزع الجزيرة العربية توزعا آخر بين عبادة الكواكب وعبادة الأصنام . وإذا العرب أوزاع فى الرأى ، أشتات فى الفكر ، يُمسك كل بما يحلو له ويطيب ، وإذا هم قد نبذوا الكثير مما توارثوه من شريعة إبراهيم وإسماعيل لا يستمسكون منها إلا ببقية قليلة كانت تتمثل فى تعظيم الكعبة والحج إلى مكة ، وإذا هم بعد هذا أمة أضلتها الضلالات ، واستهوتها اللوُبقات ، واستحوذت على عقولها الخرافات . تَذل للأصنام ، وتستنيم للكهان ، وتستملى الأزلام ، وإذا أخلاقها تُراق وتهون على موائد الخمر والميسر ، وإذا عَدْلها يُفوِّته عليها بَغى الأقوياء ، وإذا أمنها ليس لها مِنه إلا هباء .

٣ ـ الإرهاص بميلاد الرسول

وشخصت أبصار القِلة الواعية من رجالات الجزيرة الراشدين إلى السماء تنشد العون وتستمطر الرحمة ، وجمعت البلبلة الفكرية بين أربعة من هذه القِلة الواعية — هم : ورقة بن نوفل ، وعُبيد الله ابن جحش ، وعثمان بن الحُويرث ، وزيد بن عمرو بن نُفيل — ينظرون لأنفسهم ولأمتهم ، فما انتهوا إلى رأى ولا أجمعوا على ما يختارون ، وإذا هم أشتات حين انفضوا كما كانوا أشتاتا حين اجتمعوا ، ولم يَقِرّوا على شيء لأن الأمر كان أجل من أن يحمل عبئه غير رسول مؤيَّد من السماء .

وكانت الإرهاصات تُشير إلى ميلاد هذا الرسول ، وإلى أن هذا الرسول هو محمد .

فلقد سعدت مُرضعته حليمة به وانتقلت من شَقاوة إلى نعيم ومن شدة إلى لين . ولقد شَب لا يأخذ فيما يأخذ فيه لداته من لعب ، وما عُهدت عليه كِذبة ولا زلّة . وما عكف على صنم ، ولا شرب خمرا ، ولا وضع يده فى ميسر ، ولا استنام لتُرّهة ، ولا شارك فى قَبيحة ؛ بل عاش عفًّا صادقا أمينا حليما رحيما ، تَحِر لخديجة قبل أن يصبح لها زوجا فبهرتها أمانته ، ورأى القرشيين

حين اختلفوا فى وضع الحجر وكادت تثور بينهم الحرب فكان نعم الرأى ، و نفر مما كانت تفعله العرب من وأد لبناتهم وكان حرباً عليه. واشمأز مما كانت تستمتع به العرب من موبقات وكان حربا على نفسه قبل أن يكون حربا عليهم ، وحين برز بهذه الصفات فى بيئته وبين قومه برز الناظرون فى الكتب المقدسة يعرضون ما يجدونه مكتوباً على ما يجدونه مرئيًّا ومسموعا ، فإذا هم يرون فى محمد هذا الرسول المرتقب .

فلقد جاء على لسان موسى فى وصيته ما يبشر بعيسى ثم بمحمد من بعده حين قال : « جاء الرب من سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من فاران » .

والمراد بساعير: جبال فلسطين حيث ظهر عيسى ، وبفاران مكة[1] .

وفى الفصل الثامن عشر من الكتاب الخامس من سفر التثنية : إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : « قل لبنى إسرائيل إنى أقيم لهم آخر الزمان نبيا مثلك من بنى إخوتهم » .

ولقد جاء بعد موسى عيسى ، وهو من بنى إسرائيل ، وكان مقتضى قول الرب لموسى أن يكون ثمة نبى مرتقب بعد عيسى .

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت . صفة جزيرة العرب للهمدانى . الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهروانى .

ولقد كان محمد من ولد إسماعيل ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإسحاق جد بنى إسرائيل ، فإخوتهم هم بنو إسماعيل .

تزكى هذه الآية (١٨) من الإصحاح (٢٥) تكوين : «وسكنوا — أى أبناء إسماعيل — من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما مجيء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل » .

كما تزكيه الآية (١٢) من الإصحاح (١٦) تكوين : « وأمام إخوته يسكن » .

ثم جاء على لسان يوحنا حكاية عن المسيح (ص ١٤ ف ١٥) و (ص ١٦ ف ٥) ما يشير إلى إتيان (الفارقليط paraclete) . ومعنى الفارقليط : الكثير الحمد . وهذا المعنى هو ما تعطيه كلمة « أحمد » التى هى من أسماء النبى .

وجاء فى كتاب الرؤيا المنسوب إلى يوحنا الإنجيلى (ص ١١ ف ١١) : « ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل يحكم » . ولقد دُعى محمد : الأمين الصادق .

وجاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى (ص ١٩ ف ١٥) : « ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم . . . وهو يدوس معصرة خمر » . والقرآن الكريم فى مضاء السيف أذعنت له الأمم ، ومحمد

حرم الخمر وما حرمها عيسى ، فلقد روى أنه صير الماء خمراً في عُرس قانا ، كما حكى عنه أنه قال عن الخمر : إنها دمه [1] .

٤ — رسالة محمـــد

وهكذا كان محمد حين دَبّت قدماه على أرض مكة من الجزيرة العربية محط الأبصار ، وشُغل الأفكار ، حاطه ربه باليمن وليداً إيذاناً منه لعباده بما سيُؤهله له ، وصانه عن اللهو العابث صبيًا ليرتفع به عما يتدنّى فيه غيره كي يُمهد لإجلاله ، وأجرى الصدق على لسانه ، وبَسط بالأمانة يديه ، وملأ بالرحمة قلبه ، وبالحكمة رأسه ، ليرى الناس فيه ما يفقدون من صفات فيلتفوا حوله اليوم تمهيداً لا لتفافهم حوله في غد .

وحين استوى محمد شابًّا واستوت باستوائه صفات الكمال كلها فيه رأى الناس أنهم بين يدى عَجب استعصى على عامتهم تأويله ولم يستعص على خاصتهم من أولى الكتاب ، فعرفوا أنه النبي المُرتقب.

---

(١) وانظر كتاب : البشارات التى جاءت عن رسول الله فى العهدين ، لمؤلفه رحمة الله الهندى .

ومضى محمد فى طريقه المرسوم يهيئه الله لتلقى ما سوف يوحى به إليه .

فغدا لا يرى فى منامه رؤيا إلا جاءت مثل فَلق الصبح ، وغدت الخلوة مُحببة إلى نفسه ، يقضى فى غار حراء الليالى ذوات العدد خالياً لعبادته ، ولا يعود إلى أهله إلا لكى يتزود لمثلها .

وفيما كان محمد فى غار حراء خاليا يتحنث تمثل له جبريل يحمل إليه الوحى من ربه ويؤذنه بدَعوة قومه إلى الله الواحد الأحد وترك عبادة الأوثان .

وكان ابتداء الوحى فى شهر رمضان وفى السابع عشر منه . يشير إلى الأولى قوله تعالى فى سورة البقرة : « شَهْر رَمضان الذى أُنزِل فيه القُرآن » . ويشير إلى الثانية قوله تعالى فى سورة الأنفال : « إن كُنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عَبْدنا يومَ الفُرقان يوم الْتَقَى الجَمْعان » وكان التقاء الجمعين — أعنى المسلمين والمشركين يوم بدر — فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وكان أول ما نزل عليه من الوحى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . ولقد تلقّاه الرسول مَجهوداً وانصرف به مشدوهاً ، ووقف فى مكانه بعد خروجه من حراء ناظراً فى آفاق السماء لا يتقدم

أمامه ولا يرجع إلى الوراء . إلى أن ارتدت إليه نفسه وانتهى إلى خديجة وهو يُحس رِهزة المَقرور .

وفَتر الوحيَ فترةً [1] كانت لتلك النفس البشرية المختارة بمثابة الفترة التي سبقت الوحي وحُبب فيها إلى الرسول أن يتحنث . فلقد هيأ هذا التحنث نفس محمد لهذا التلقي وقارب بها منه ، وإذا هي على الرغم من هذا التقريب وذاك الإعداد تهتز لجلال ما تَرى وتسمع ، وإذا هي بهذا قد انتهت من مرحلة لتبدأ في مرحلة ، وإذا المرحلة الجديدة في حاجة إلى زاد كما كانت المرحلة الأولى في حاجة إلى زاد ، وإذا هذا الزاد الجديد فترة يخلو فيها محمد إلى نفسه بما شاهد يتمثّله مرةً ومرة لَتراح إليه رُوحه وليأنس به رُوعه ، حتى إذا ما تلقّاه بعدها تلقاه متهيّئاً له . وهكذا كانت تلك الفترة خلوة ثانية ، بعد تلك الخلوة الأولى في غار حراء ، هيأت الأولى نفسه لتلقي الوحي ، وهيأت الثانية نفسه للأنس بالوحي .

وحرّكت فترة الوحي ألسنة أهل مكة بالقول فاسترسلوا يقولون : ودّعه ربه وقلاه . يردّدها لسان الضلال شماتة بلسان الحق ، ويحاول العقل الغافل أن يخدع بها العقل الواعي ليصرفه عن الدعوة الجديدة .

---

(١) كانت فترة الوحي أعواماً ثلاثة .

وانضمت هذه التى خلا بها الخُصوم من شماتة إلى تلك التى خلا بها الرسول من لهفة ،فإذا هو بعد هذه وتلك أحزن ما يكون على انقطاع الوحى أشوق ما يكون إلى اتصاله .

ومع هذا التهيؤ الكامل لهذه النفس البشرية المختارة اتصل الوحي ونزل على محمد قوله تعالى : « والضُحى والليل إذا سَجى . ما ودَّعك ربك وما قَلَى » يَرد على المتقولين . ونزل عليه قوله تعالى : « يا أيها المُدَّثر قُم فأنذر » يأمره أن يكون رسول ربه إلى الناس يدعوهم إليه وإلى الحق ويصرفهم عن الأوثان وعن الباطل.

٥ ــ بدء الدعــوة

وأخذ محمد يدعو إلى ربه وإلى هذا الدين الجديد الذى اصطفاه ربه له فى بيئة قد عَرفتَ لها إيغالها فى الباطل واستكانتها إليه ، وبين قوم أُشربوا الضلال فعاندوا عليه ، فاقتضت الحكمة الحكيمة أن تأخذ الدعوة طريقها سرًا لا علانية وخِفية لا جهراً ، تضُم إليها الآنس بها وتجمع عليها من تَفتَّح قلبه لها .

وكان أقرب الناس إلى الرسول من الرجال أبوبكر ، وكان له صديقاً وإلفاً ، ومن الصبيان علىّ بن أبى طالب ، فى ظِله نشأ وبين

يديه شَب ، ومن النساء زوجه خديجة ، وكانت كالئته فى خلواته وملاذه فى فَزعاته ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، وكان حِبّ رسول الله ، وهَبته خديجة له قبل النبوة وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين فأعتقه الرسول وتبنّاه ، ومن العبيد بلال بن رَباح الحبشى ، وكان قريباً من أبى بكر غير بعيد عما يرى . فكان هؤلاء جميعاً أول من آمنوا بمحمد وأول من صدقوه . وبقى الرسول بمن آمن معه يدعو الناس خفية ، وما سَلِم الرسول وما سَلِم من معه — على الرغم من عدم مجاهرتهم بالدعوة — من أذى كبير حملوه راضين ، حتى إذا ما أفصحت الدعوة عن نفسها شيئاً وغدت حديث البيئة لم يكن بُد من أن يقف محمد ومن حوله القليلون المستضعفون للناس جهراً يدعون بعد أن قضوا نحواً من أعوام ثلاثة يُسرون.

وكان الصدام بين الحق والباطل . وما جُبلت النفوس الغافلة أن تخرج من غفلتها فى يُسر ، لا سيما إذا كانت تلك الغفلة تُظلها عقيدة ويحميها تقليد ، وكانت تلك العقيدة وذلك التقليد إرْثَ قُرون .

ومشت قريش إلى الرسول تساومه على أن يطلب ما يشاء من مُلك أو سيادة أو مال على أن يترك ما يدعو إليه ، فعادوا بغير ما كانوا يأملون ، ولقد كانت لهم فيها عظة لو كانوا يتدبّرون.

من أجل هذا عنف هذا الصدام وقسا وذاق دُعاة الحق من عنفه ومن قسوته الشيء الكثير ، وكان ما ذاقوا ابتلاء لهذا الحق وابتلاء لهم ، إذ لو كان هو زيفاً ما ضَمَّهم إليه على عُسره ، ولو كانوا هم على غير اليقين به ما انضموا إليه حاملين ما يُمِر .

ومضى محمد يشق الطريق بمن تبعه وسط هوجاء عاصفة ، يدبر للدعوة بتدبير السماء . وكان حين يصبر على الأذى يصيبه يأسَى للأذى يُصيب أصحابه .

فلقد كان رسولا وكان فى عافية بمكانه من رسالته لا يخشى أن يزلزل إيمانه بها ترغيب أو ترهيب ، وكان أتباعه على حُسن إيمانهم وعظيم صَبرهم بشراً يجوز عليهم ما يجوز على البشر مع الوعد والإيعاد . ولقد وَفَى أكثرهم لمعتقده فلم يَصرفه إيذاء كما لم يحوِّله إعطاء ، وهلك نفر منهم تحت سوط البلاء ، كما لان نفر منهم فأعطوا بألسنتهم وما نظنهم أعطوا بقلوبهم .

فلقد تتبع مشركو مكة من يُسلمون بألوان الأذى كلها لا يَقصدون . فآذوهم فى أموالهم وآذوهم فى أهليهم وآذوهم فى أجسادهم . وعز على رسول الله ما يلقى أصحابه وكانوا كلهم قد تخلّت قبائلهم عن حمايتهم ، فمن كان منهم ذا بأس هابوه ، ومن كان منهم مستضعفاً حملوا عليه .

وهنا يرى الرسول رأياً ويراه معه الذين استضعفوا أمراً . لقد رأى الرسول لهؤلاء أن يهاجروا إلى الحبشة بعد أن سمع عن النجاشي عدله وإنصافه ، فخرج إلى الحبشة نفر من المسلمين على ما في هذه الرحلة من ألم الفراق ووعثاء الطريق وعذاب الغربة .

ولكن قريشاً لم ترض لمسلم أن يَقر آمنا وإن كان على أرض غير أرضه . فحين بلغهم أن المسلمين أصابوا بالحبشة داراً وقراراً بعثوا في إثرهم رجلين من رجالهم وحمّلوهما هدايا للنجاشي وبطارقته ، وكاد الرجلان أن يكيدا للمسلمين عند النجاشي ، ولكن النجاشي حين استمع لهما واستمع للمسلمين رد الرجلين خائبين وترك المسلمين آمنين .

ويُسلم حمزة بن عبد المطلب ويسلم عمر بن الخطاب ، وكانا رجلي بأس ، ففرح لإسلامهما المسلمون وأسى لإسلامهما المشركون ، ولما رأوه من انتشار الإسلام على الرغم مما يفعلون . وخال المشركون أنهم لم يبلغوا في الأذى ما يريدون فائتمروا بينهم أن يُمعنوا في الإيذاء إلى حد لا يقوى المسلمون له ، فكتبوا فيما بينهم كتابا تعاقدوا فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن يقطعوا ما بينهم وبينهم فلا تكون ثمة صلات من زواج أو بيع أو شراء ، غير أن ذلك لم يُجْد شيئاً .

ويفقد الرسول نصيرين عزيزين إلى نفسه كريمين عليه ، الواحد بعد الآخر . قبل أن يُهاجر إلى المدينة بنحو من ثلاث سنين ، فلقد فقد عمه أبا طالب ، وكان نعم العون له ، ، كفله بعد وفاة جده عبد المطلب ، ووقف إلى جانبه منذ بُعث يناصره ويرد عنه كيد المشركين ، وكان المشركون يهابون أبا طالب فلم يقدموا على كثير مما كانوا يريدون . وبعد أيام ثلاثة فقد زوجته خديجة بعد زواج دام أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر . ولقد علمت موقف خديجة من الرسول قبل أن يُبعث وبعد أن بُعث ، وكانت أول مسلمة وأول مناصرة رعت الرسول وقامت فى عَونه أيام لا عون .

وكما حزن المشركون لإسلام حمزة وعمر فرحوا لموت أبى طالب وخديجة واشتطوا يُمعنون فى الأذى . غير أن الرسول ما أبه لأذى المشركين وما قعد عن لقاء الناس فى الأسواق يدعو لعقيدته .

وكان الإسراء الذى تم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم المعراج إلى السماء . وفى تلك الليلة فرضت الصلاة على المسلمين وكان ذلك قبل الهجرة بسنة .

ولسنا نحب أن نخوض فيما خاض فيه المجتهدون من قبل حول الإسراء والمعراج أكان بالجسد أم أكان بالروح ، واختلافهم دليل

على أنه ليس ثمة قول قاطع ، وعندى أن الخير فى مثل هذه تقبل الصورة على إجمالها ، فنحن ملزمون بالتصديق بالإسراء وللمعراج وأنهما وقعا حقًا، ولكنا غير ملزمين أن نؤمن بالصورة التى وقعا بها مادمنا لا نجد أثراً يُملى إملاء صريحا ، وثمة حقائق دينية منها هذه يجب أن نقف عند مدلولها ولا نناقش صورها ، وأى شىء يعنى المؤمن عن الرسول فى هذه إلا أن يصدق بأنه أسرى به وأنه مع هذا الإسراء فرضت الصلاة ، وأين نفوسنا وما تملك من نفوس الرسل وما تملك ، وأين بصائرنا وما تحوز من بصائر الرسل وما تحوز ، ثم أين مكان المغمور فى حمأة المادة من مكان السابح فى شفافية المعنويات .

لقد أُسرى بالرسول وعُرج به ما فى ذلك شك ، ولقد فرضت الصلاة فى تلك الليلة ما فى ذلك شك ، بهذا حدثنا الرسول ونطق القرآن . ولو شاءا تفصيلا لزادا ، ولكنهما أعطيانا ما نعى وما يَعْنينا وحَجبا عنّا ما بعد ذلك .

ولعل نظرة المشركين للإسراء يناقشون صورته التى وقع بها هى التى حفزت المسلمين بعد إلى أن يُكدوا أنفسهم فى هذا الخلاف . وليست صورة الوحى تُبعد كثيرا عن صورة الإسراء ، ومن آمن بالأولى يؤمن بالثانية ، فكما اتصل محمد بربه فى تلك اتصل محمد بربه فى هذه ، وكما تلقى محمد عن ربه فى الأولى تلقى محمد عن ربه فى الثانية.

٦ ـ الأنصار

وحين ازداد المشركون إيذاء ازداد الرسول تعرضا للقبائل يعرض عليها ما نزل عليه من السماء ، وبينما هو عند العقبة قريباً من مكة لقى نفراً من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فأجابوه وأسلموا ورجعوا إلى قومهم فى المدينة بالإسلام يدعونهم إليه .

حتى إذا كان العام المقبل لقى الرسول من الأنصار رجالا آخرين فبايعوه على الإيمان به ، وفى اللّقية الثانية كان الاتفاق بين الأنصار والرسول على خروج الرسول إلى المدينة ، واستوثق الرسول واستوثق له عمه العباس ، وكان حاضراً فى هذا الاجتماع ، وكانت الهجرة إلى المدينة . خرج إليها المسلمون وأقام الرسول بمكة يدبر لأمر خروجه .

وعلى الرغم من حيطة قريش خرج الرسول ومعه أبو بكر وركبا إلى المدينة ، وخرجت قريش فى إثرهما تطلبهما . ففوّت الله عليهم ما يطلبون .

وكان خروج الرسول من مكة يوم الخميس فى اليوم الأول من ربيع الأول ، وكان بلوغه المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت

منه ، وكان ذلك ظهر يوم اثنين ، وكان عمـره إذ ذاك ثلاثا وخمسين سنة .

ولقد علم المسلمون أول ما علموا أن هذا البلاء زادُ المسلم إلى الجنة وصفحته يوم الميعاد ، وما على الرسول إلا البيان وأن عليهم التمكين لهذا البيان ، ونصر الله صِنو جهاد العبد وكفاحه وصبره ، على هذا رسالات السماء ، وعلى هذا رُسل السماء إلى العباد ، يهبط الهدى حين تشيع الظلمة ، ويتلقّف الهدى رسول مختار ، يصطفيه الله صادقاً جَلداً صبوراً فإذا الناس معه على الطريق لهم مثل صِدْقه وجَلده وصَبره ، همهم مثل همه ، نُصراء للحق ينصرونه بصدقهم وجَلدهم وصبرهم ، لا يحرصون على الحياة ولا يغريهم متاعها ، وإذا هم حين يؤيدون رسالة السماء ، قد أيدتهم رسالة السماء ، وإذا الدنيا معهم على هذا الحق وإذا هم سادة الدنيا بهذا الحق .

على هذا عرف المسلمون محمداً وبهذا قدّم محمد نفسه للمسلمين ، لم يطمعوا فى أن تكشف السماء عنهم ضُرا لم يشمروا هم لكشفه ، ولا فى أن تُزيح عنهم السماء بلاء لم يتهيئوا هم لإزاحته ، كما لم يجعلوا كلمة التوحيد وحدها سلاحهم على أعدائهم وعُدتهم التى بها يقوون بل جعلوا هذه الكلمة هى اللَّبنة الأولى فى صَرح إيمانهم . وانضم بها بعضهم إلى بعض يتناصحون والرسول من بينهم يُملى عليهم ويشير .

على هذا عاهد المسلمون الله ، وعلى هذا عاهد المسلمون الرسول ، عاهدوا الله على أن يناصروا رسوله ، وعاهدوا الرسول على أن يناصروا رسالته ، ثم عاهدوا أنفسهم على البذل للتمكين للرسالة ، لا يسألون الله نصراً قبل أن يسألوا أنفسهم بذلا .

وعلى هذا عاش منهم فى مكة من أنس فى نفسه قوة على احتمال الأذى ، ولم يخش أن يُفتن فى دينه ، وهاجر منهم إلى الحبشة من لم يقو على احتمال الأذى وخاف أن يُفتن فى دينه ، حتى إذا كانت الهجرة إلى المدينة لم ينظر المهاجرون إلى وطن عزيز عليهم ، وأهل أقرباء إلى نفوسهم ، ومالٍ هو قوام حياتهم ، وإنما نظروا إلى عقيدة هى لهم الحياة كلها وطناً وأهلا ومالا ، وسَرعان ما لحق بهم الرسول إلى المدينة ليبدأ بالمهاجرين معه من مكة وبالأنصار أهل المدينة مرحلة جديدة من مراحل الدعوة كانت معها حروب ، وكانت معها تضحيات ، وكان نصر الله صِنْو نصر المسلمين لرسوله ولرسالته . وكتب الله بجهاد المجاهدين لهذه الدعوة أن تستقر ، وكتب لها أن تدخل بهم مكة فاتحين ليمحوا كلمة الإثم ويردوا أهلها إلى الهدى .

٧ – غزوات الرسول

وغزا رسول الله بالمسلمين سبعاً وعشرين غزوة، كما بعث بُعوثا وأرسل سَرايا بلغت جميعها ثمانياً وثلاثين . وكانت هذه البعوث والسرايا والغزوات كلها دفاعاً عن النفس وذياداً عن الحق . فلقد لبث الرسول بالمسلمين منذ بدأت الدعوة ثلاث عشرة سنة داعياً إلى الله بالمعروف يُعرَّض به كما يعرَّض بالمسلمين فلا يعنيه ولا يعنيهم هذا التعريض ، ويؤذَى المسلمون بين يديه فيدعوهم إلى الصبر ولا يهيجهم إلى الشر. وكان ذلك يُظن عن ضعف حين كان للمسلمون قلة فما بالك بهم بعد أن أصبحوا كثرة . وكم من أيام آب فيها الصحابة إلى الرسول وهم ما بين مَشجوج و مضروب يستأذنونه فى أن يردُّوا عن أنفسهم أو يثأروا من ضاربيهم ، فما كان جواب الرسول لهم إلا قوله : اصبروا فإنى لم أومر بقتالهم .

وكانت حكمة السماء فى هذا الصَّبر أن يخرج الرسول بالأمة العربية من بعده على وُدٍّ لم يُعكِّره عداء أو عُدوان ، وكانت حكمتها فى الإرخاء فيه إلى أن بلغ ثلاثة عشر عاما أن تُعذر إلى من لم يُسلموا ، ولم يكونوا غير أهل وإخوان ، الإعذار كله فلا تَذر فى أيديهم سَبباً من أسباب اللَّوم ، ثم كانت حكمة السماء فى هذا

الصبر الطويل أن تخلق فى المسلمين قـُوة الاحتمال والجلد والأناة والترفق ، إلى غير ذلك من صفات تـُعوز النفوس المُقبلة على مهامّ جسيمة ، وهل كانت رسالة الإسلام إلا رسالة جَسيمة ؟

حتى إذا ما أعذر المسلمون إلى إخوانهم وأبلغوا فى الإعذار ، وصبروا وأمعنوا فى الصبر ، لم يكن بُد من أن تتولى حكمة السماء هؤلاء الصابرين بتدبير يحفظ عليهم صبرهم من أن ينفد ، ويحفظ عليهم وُجودهم من أن يُستذل ، وترعى لهم كيانهم من أن يُهان ، وما جاءت الدعوة الجديدة ألا لتحمى لهؤلاء وجودهم وكيانهم ، لهذا أُذن للرسول فى أن يَدفع عن نفسه وعن المسلمين .

ونحن إذا تتبعنا الغزوات غزوة غزوة ، والسرايا سرية سرية ، والبعوث بعثاً بعثا ، لا نجدها خرجت جميعها إلا لتدفع غزواً أو لتُرهب حتى تمنع غـَزواً .

فلقد خرج حمزة على أول بعث بعد سبعة أشهر من الهجرة ليلقى عيراً لقريش فيها أبو جهل قادمة من الشام ، وكان هذا البعث الأول نذيراً لقريش علّه يـكُـفّها عن غيها ،لم يَقصد فيه المسلمون إلا إلى هذا ، فحين دخل بين الفريقين رجل صُلح كف المسلمون أيديهم ولم يدخلوا فى قتال .

وبعد شهر من هذا البعث خرجت سرية لتلقى أبا سفيان

فى نفر من أصحابه ، وكانت بين الفريقين مناوشة أصيب فيها سعد ابن أبى وقاص بسَهم من سهام المشركين ، فكان أول سهم أصيب به مُسلم فى الإسلام .

ثم كانت سرية سعد بن أبى وقاص التى خرجت تعترض عيراً لقريش ، فمرت العير ولم تَقع عليها السرية .

وعلى رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة خرج رسول الله وجمع من المسلمين يريدون ودّان — الأبواء — حيث عِير لقريش، وحيث بنو ضَمرة الذين كانوا يُعينون عليه . ورجع رسول الله بمن معه من هذه الغزوة بعد أن صالحته بنو ضَمرة على ألا تعين عليه . ولقد فاتته عير قريش فى هذه الغزوة كما فاتته فى غزوة بعدها هى غزوة بواط ، وكانت بعد شهر من غزوة ودّان.

وبعد غزوة بُواط كانت غزوة بدر الأولى التى خرج فيها رسول الله ليُدرك كُرز بن جابر الفهرى ، وكان قد أغار على المدينة واستاق سرحا لها . غير أن كرزافات جيش المسلمين فلم يدركوه .

وعلى رأس ستة عشر شهراً من الهجرة خرج حمزة بن عبدالمطلب فى نفر من المسلمين يريدون عيراً لقريش قافلة من الشام ، وحين أدركوا العُشيرة ، وجدوا أن العِير فاتتهم .

وبعد شهر خرجت سرية فى اثنى عشر رجلا تبغى نخلة ، وهو

مكان بين مكة والطائف ، لترصد قريشا وتعرف ما عندها . غير أن تلك السرية التقت بعير لقريش فكان بينهما عدوان تورط فيه المسلمون وعادوا بغنائم وأسرى ، وكانوا فى رجب ، وهو شهر حرام ، فعاتبهم الرسول عليها حين عادوا إليه .

ثم كانت غزوة بدر الثانية فى السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكانت بسبب تلك العير التى فاتت المسلمين فى العشيرة . وفيها كانت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وفيها انتصف المسلمون من المشركين على الرغم من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين .

وبعد ليال سبع من مرجع المسلمين من بدر خرج الرسول يريد بنى سُليم . وحين أحس بنو سليم بالمسلمين يطلبونهم ولّوا هاربين .

وهكذا بدأت رهبة المسلمين تدب فى قلوب المشركين ، وبعد أن كانوا قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين .

وهنا أُحب أن أقف بك وقفة قصيرة ، فالحديث عن هذه الغزوات والسرايا والبعوث ذو شِقين ، ينتهى شِقه الأول إلى ما قبل بدر الثانية ، ثم هو منذ بدر الثانية ذو شق آخر .

ولقد مر بك فى هذا الشق الأول عَرْض لكل ما كان فيه

من هذه السرايا والبعوث والغزوات ، ولقد رأيت فيها المسلمين قد شمروا لإثبات وجودهم وليَظهروا فى مظهر القوى بعد أن عاشوا فى مظهر المستضعف ، وأن ذلك كان منذ أن استقرت أقدامهم فى المدينة بقليل ، وأنهم لم يلبثوا غير سبعة أشهر فى المدينة كان بعدها خروجهم لهذا الإعلان عن قوتهم .

والدعوات عَجِلة بقدر ما هى مُستأنية ، تستأنى وتُطيل الاستئناء ما وجدت فى هذا الاستئناء الخير ، وتعجل فتُسرع إلى العجلة ما وجدت فى هذه العجلة الخير . ولقد تلبّث الرسول بمن معه من المسلمين ثلاثة عشر عاما — كما قلت لك — لا يحب أن يخرج بالمسلمين عن الصبر والاحتمال لأسباب بينتها لك ، حتى إذا ما نفدت حكمة الصبر كانت حكمة الخروج عن الصبر .

ولقد خرج المسلمون من المدينة فى تلك السرايا والبعوث والغزوات ليثبتوا للملأ من حولهم أنهم خرجوا عن صبرهم، وليثبتوا للملأ من حولهم أنهم قُوة تملك أن تُرهَب .

ولا غرو أن نرى هذا الشق الأول كله يمضى فى التعرض لعيرٍ بعد عِير ، فلقد كان هذا أسلوب ذلك العصر فى الإرهاب ، وما أراد المسلمون غير أن يُهابوا ويُرهبوا وأن يبادلوا جيرانهم هذا الأسلوب الإرهابى .

ولم يكن فيه عليهم غضاضة ، فلقد رأيتهم فى كل ما فعلوا لم يقصدوا إلا الإعلان عن خروجهم ، ولقد فاتتهم العير فى الكثير من خرجاتهم ، وحين التقوا بخصومهم مرة كان هذا الصلح الذى تم بين حمزة وأبى جهل فى البعث الأول ، ثم لقد رأيت كيف عاتب الرسول أصحابه على ما كان منهم فى نخلة .

إذاً لم يكن صحيحاً ما اتهم به المغرضون محمداً وأصحابه عن هذا الشق الأول من الحروب بأنها كانت للسلب ، فلقد رأيت معى كم سلب المسلمون فيها وكم عِيراً لقوا . والصحيح كما ثبت لك أن هذه الحروب — إن صح أنها كانت حروبا — لم يقصد منها المسلمون إلا إلى الذى حدثتك عنه ، وأنها لم تكن غير وثبة بعد صبر طويل ، وكانت وثبة تحكى وثبات العصر فى شىء وتخالفه فى شىء ، تحكيه فى مظهرها الإرهابى وتخالفه فى مظهرها السلبى.

ومنذ أن دخل المسلمون مع المشركين فى غزوة بدر الثانية بدأ الشق الثانى من الحروب . فلقد أخذت الحرب فى هذا الشق الثانى مظهرها الحق ، فنشبت تُمليها الخصومة القائمة بين عقيدة وعقيدة ، وكان الخروج إليها خروجا من أجل إثبات عقيدة ومَحْو أخرى ، واختفت تلك الأسباب الأولى التى أثارت حروب الشق الأول ، اختفى مظهر الإرهاب وما إليه من تتبُّع عير

أو التعرض لها ، وبدا مظهر التطاحن من أجل العقيدة ومن أجل نشر العقيدة ، وعلى هذا توالت غزوات الشق الثانى .

فكانت غزوة بنى سليم التى حدثتك عنها ، ثم غزوة بنى قينقاع يهود المدينة ، وكانوا على غير صفاء مع المسلمين ، وبعد هذه الغزوة كانت غزوة السويق التى خرج فيها أبو سفيان ليثأر لبدر .

وحين رجع الرسول من غزوة السويق خرج يغزو غطفان ، وكان قد بلغه أنهم أعدُّوا العدة لغزوه .

ثم كانت غزوة أحد التى خرج فيها المشركون ليثأروا من المسلمين بيوم بدر ، وفيها خالف المسلمون أمر الرسول وتدبيره فكانت الغلبة للمشركين .

وبلغ رسولَ الله عَقب قفوله من «أحد» أن المشركين يَهُمون بالرجوع إلى المدينة بعد أن كسبوا شيئاً من النصر فى أحد ، فخرج الرسول بأصحابه الذين كانوا معه فى أحد وحدَهم إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة حتى لا يَطمع فيه عدوُّه .

وفى ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة كانت غزوة بنى النضير من يهود المدينة ، وكانوا قد كادوا للرسول وهموا بقتله .

وبعد هذه الغزوة بنحو من شهرين خرج رسول الله إلى غزوة

ذات الرِّقاع ليغزو قوما من غطفان كان قد بلغه عنهم أنهم جمعوا جُموعا لمحاربته .

ثم كانت غزوة بدر الأخيرة ، وقد كان أبو سفيان حدّد موعدها بعد بدر الثانية ، غير أنه خشى بأس المسلمين فلم ينهض إليهم .

ولمثل ما خرج إليه الرسول يوم ذات الرقاع كان خروجه إلى دومة الجندل — مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة — فلقد بلغ الرسول أن قوما يعسفون ، وأنهم على أن يمتدوا بعَسفهم إلى المدينة ، فخرج إليهم فإذا هم يفرون ، فعاد المسلمون وقد غَنموا شيئاً .

ولمثل هذا أيضاً كان خروج الرسول إلى المُريسيع .

واتفقت كلمة اليهود مع كلمة المشركين على أن يغزو محمدا فى المدينة مجتمعين ، فكانت غزوة الخندق التى حفر فيها الرسول خندقا حول المدينة يَحميها من هذا الهجوم ، ولقد كُتب فيها النصر للمسلمين وارتد المشركون عن المدينة مَدحورين .

ولم يكن بُد من أن يأخذ المسلمون اليهود بمُناصرتهم لقريش فى غزوة الخندق ، فما كاد المشركون يرتدون عن المدينة حتى خرج المسلمون لغزو بنى قريظة وإملاء شروطهم عليهم .

وكانت بعد هذه غزوات وسرايا ، كان الخروج إليها لمثل تلك الأسباب التى مرت بك ، إلى أن كان أمر الحديبية حين خرج رسول الله يريد مكة بعد ست سنوات من الهجرة ، وحيث كانت المصالحة بينه وبين قريش على أن يرجع عنهم عامهم هذا .

وفى السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر حيث اجتمع اليهود على حرب المسلمين ، ثم فتحها .

وبين غزوة خيبر سنة سبع وفتح مكة سنة ثمان كانت سرايا وغزوات لرد عدوان أو كبت خصومة . وبفتح مكة عاد الإسلام إلى موطن الرسالة ومكان البيت ، وقُضى على كلمة الشرك القضاء الأخير بعد أن اقتُحم عليه معقله .

ولقد خاض المسلمون بعد فتح مكة حربين حُملوا عليهما ، كانت أولى هاتين الحربين غزوة حنين التى تهيأت فيها هوازن لحرب الرسول ، وكانت بينهم وبين المسلمين حرب طاحنة كتب فيها النصر أخيراً للمسلمين . وتبعت هذه الحرب حرب ثانية كانت امتداداً للحرب الأولى وهى غزوة الطائف .

وكانت بعد غزوة الطائف سرايا من نوع ما سبق من سرايا ، إلى أن كانت غزوة تبوك سنة تسع وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وكان قد خرج فيها للقاء الروم ، ولم يكن لقاء .

وإن نظرة إلى جيش المجاهدين المسلمين عند أول بعث خرجوا له ، وعند آخر جيش تعبئوا له ، ندرك كيف بدأ المسلمون وكيف انتهوا ، فلقد كان بعث حمزة ثلاثين راكباً وكان جيش تبوك ثلاثين ألفاً وكانت الخيل فيه عشرة آلاف .

وهكذا خلقت العقيدة من القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، وبعد أن كان المؤمنون قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين . وكان نصر الله فى ظل راياتهم أنّى تخفق ، ومع خطوات جيوشهم أنّى تسير .

٨ ــ عرض لحيـــاة الرسول

وفى ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة حج الرسول بالمسلمين حجة الوداع وفيها خطب الناس خطبته البلقاء التى رسم للناس فيها الحدود وذكّرهم بمعالم الدين ، وفيها ودع الناس وكأنه يُحس أنه مُلاقٍ ربه .

وفى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة أخذ المرض رسولَ الله ولبث مريضاً أياما ، يقدّرها بعضهم بسبعة أيام ويقدرها بعضهم بثلاثة عشر يوما .

وفى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من تلك السنة

—أعنى السنة الحادية عشرة للهجرة — قُبض رسول الله عن ثلاث وستين سنة قمرية .

وكانت سنو بعثته ، منذ بَعثه الله إلى أن قبضه إليه ، نحوا من ثلاثة وعشرين عاما ، قضى أكثرها وما يزيد على نصفها فى مكة تسانده زوجته خديجة إلى أن ماتت قبل الهجرة إلى المدينة بنحو من أعوام ثلاثة .

وفى المدينة عاش الرسول نحوا من أحد عشر عاما وقعت فيها الغزوات كلها ، والسرايا والبعوث كلها ، وعلى الصحيح فى تسع منها ، لأن أول بعث كان فى السنة الثانية من الهجرة . ولقد علمت من قبل أن مجموع تلك الحروب كان نحواً من خمس وستين لتعلم هنا أن نصيب كل عام من تلك الأعوام من هذه الحروب بلغ الثمانى ، أى إنه صلى الله عليه وسلم كان له فى كل شهر تدبير جيش ولقاء عدو ، هذا إلى تلك التشريعات الكثيرة التى وضعها عن أمر ربه والحدود التى بينها بوحى من ربه ، ثم ما بين هذا وذاك من لقاء وفود ولقاء أفراد وكتب إلى الملوك والأمراء ، وقيام بأمور المسلمين جميعاً ، وما كان أكثرها .

تُرى فى ظل هذا كله كيف كان الرسول يفرغ لشأنه ، وكم من ساعات يومه كانت له خالصة ، ونحن نعلم ، إلى هذا الذى ذكرناه

له من واجبات واجبات أخرى، كانت لربه يختصها بالعبادة.

هذه هي حياة أعوام تسعة رأيت كيف ملأت الواجبات الثقال صفحاتها، ورأيت كيف شغل فيها الرسول بتدبير شئون العقيدة شغلا متصلا.

ومن الغريب أن هذه الأعوام التسعة التي لا نكاد نجد فيها بين ساعاتها ساعة كانت للرسول خاصة، هي الأعوام التي يتطاول المتقولون فيقولون: إن الرسول عاش فيها لمتاعه وإنه بنى فيها بأربع عشرة امرأة.

وهذا التطاول يرده ما قدمت، ويرده أن الرسول في شبابه لم تُعهد عليه ريبة، وقد بنى بخديجة وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين، وبقي معها إلى أن توفاها الله قبل الهجرة بأعوام ثلاثة كما مر بك. وكان عمره إذ ذاك خمسين سنة.

وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة هي سودة بنت زمعة، وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو، وكان السكران هو وزوجه من مهاجرة الحبشة، وحين رجع بزوجه من الحبشة إلى مكة مات بها ولم يكن له عقب يرعى سودة فتزوجها الرسول.

ولم يتزوج رسول الله بكراً غير عائشة بنت أبي بكر وبنى بها بالمدينة، كما تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت تحت خنيس

ابن حذافة السهمى ، ثم مات خنيس فعرضها عمر على أبى بكر فلم يجب ، ثم عرضها على عثمان فسكت ، ورأى الرسول الأسى فى وجه عمر فضم حفصة إليه .

وضم إليه الرسول زينب بنت خزيمة بعد أن قُتل عنها زوجها عبدالله بن جحش يوم أحد .

وضم إليه بنت عمته زينب بنت جحش ، وكانت من قبله زوجة لمولاه زيد بن حارثة .

وبعد زينب ضم إليه الرسول رملة بنت أبى سفيان ، وكانت هاجرت مع زوجها عُبيد الله بن جحش إلى الحبشة بعد أن أسلما ، ثم تنصر زوجها هناك فى الحبشة ومات بها وأبت هى أن تتنصر وبقيت على إسلامها فتزوجها الرسول وهى بالحبشة .

وضم إليه الرسول هند بنت أبى أمية ، وكانت هى الأخرى من مهاجرات الحبشة تُوفى عنها زوجها وخلف لها ولدين وبنتين .

وضم إليه الرسول خالة خالد بن الوليد ميمونة بنت الحارث ، وكانت قبله عند أبى رُهم العامرى .

وضم إليه رسول الله صفية بنت حيي بن أَخطب ، وكانت زوجة لسلام بن مشكم اليهودى ، ثم لـكنانة بن أبى الحقيق ، فقتل عنها كنانة يوم خيبر .

وضم إليه رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، وكانت فى سبى غزوة المصطلق ، وما إن علم المسلمون بزواج الرسول منها حتى أطلقوا ما فى أيديهم من بنى المصطلق ، وقد بلغ عدد من أعتقوا مائة .

ثم ضم إليه خولة بنت حكيم التى وهبت نفسها له .

وثمة امرأتان هما : عمرة وأميمة ، بانتا عنه قبل أن يبنى بهما .

فهن جميعاً بما فيهن خديجة خمس عشرة امرة دخل الرسول بثلاث عشرة منهن ، وقد تم هذا قبل أن ينزل الوحى بتحريم الجمع بين ما زدن على أربع .

وأنت ترى أن اثنتين منهن وهما عائشة وحفصة كانتا لابنى صحابيين جليلين هما أبو بكر وعمر ، وأن ثلاثا منهن كن من المهاجرات إلى الحبشة اللاتى فقدن أزواجهن ، وهن : سودة ، ورملة ، وهند ؛ وأن واحدة منهن، وهى زينب بنت خزيمة، قتل عنها زوجها يوم أحد ، وأن واحدة أخرى كانت خالة لخالد بن الوليد الفارس المعروف ، وكان بناء الرسول بها مع دخول خالد فى الإسلام، وأن واحدة منهن، وهى جُويرية بنت الحارث ، قَرب الرسول ببنائه بها ما بين بنى المصطلق والمسلمين ، وأن واحدة منهن، وهى بنت عمته زينب بنت جحش ، كان بناؤه بها تشريعاً فى الإسلام فى إبطال

جعل المولى له حكم الابن ، وأن واحدة منهن، وهى خولة بنت حكيم، كانت قد وهبت نفسها للنبي .

وأما عن صفية بنت حيي اليهودية فلقد كادت تثير لجاجا بين المسلمين حين وقعت فى نصيب دحية بن خليفة الكلبي ، فحسم الرسول هذا الخلاف ببنائه بها ، وكانت من بيت رياسة فى اليهود .

أرأيت إلى الرسول ومن بنى بهن وكيف بنى بهن ، ثم أرأيت إلى أن هذا كله كان فى تلك الأعوام التى أحيطت بالشدائد وكان عبء تدبير هذا كله على عاتقه . ثم استمع لتعلم كيف كان الرسول فى حياته ، لقد كان زاهداً فى دنياه غليظاً على نفسه فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وكثيراً ما كان يجتزىء بالخبز والماء .

وكم كانت الشهور تمضى دون أن توقد فى داره نار لطهى ، وكثيراً ما رُئى وهو يرفو ثوبه بيده ، ثم هو بعد هذا كان القوّام الصوّام المتبتل . فأية دنيا تلك التى أرادها الرسول بهذا الزواج ؟ وإن حياة الرسول الأولى لتملى عليه حياته الثانية ، ولقد كان الرسول عفا فى شبابه ، عفا فى زواجه من خديجة ، أثقل أعباءً مع عِفته فى حياته الأخيرة .

صفحات من جهاد طويل متصل أخرج بها محمد الجزيرة العربية من عماية الضلال إلى نور الحقيقة ، ومن رجس الشرك إلى طُهر الإيمان ، ومن آثام الباطل إلى صالحات الأعمال .

فإذا الجزيرة العربية على دين الإسلام تؤمن برب واحد حق بعد أن كانت موزعة بين أرباب كثرة زائفة ، برئت من الأوثان والأصنام وكانت آفة العقل ، واطرحت وأد البنات وكان سُبة الأبد ، وعفّت عن الآثام وكانت غارقة فيها للأذقان ، واستقامت على الطريق لتحمل راية الدعوة تبشر بها فى الآفاق فإذا هى بعدقليل قد أظلت برايتها بقاعا لا تُحصى وخلقا لا يُعد .

تلك حياة الرسول أجملت لك مآثرها وماتم منها ، وماتم هذا كله بعيداً عن تدبير السماء ، وماتم هذا كله إلا عن وحى متصل يُملى على الرسول بكرة وعشيا فيُمليه هو على قومه .

٩ ــ كتاب الله

وهذا الوحى الذى تلقاه الرسول عن ربه وتلقاه المسلمون عن رسولهم إلى أن قبضه الله إليه ، هو هذا الكتاب الكريم الذى جمع للمسلمين دينهم ، وجمعهم على دينهم ، وحفظ لهم حياتهم أمة مسلمة ، وحفظهم على حياتهم إخوة مسلمين .

وما من شك فى أن هذا الكتاب الكريم يحمل معجزة ثانية خالدة بخلوده ، فلقد كانت معجزته الأولى فى بيانه الذى خرست معه الألسنة فما تنطق ، وفى فصاحته التى شدهت معها الأفئدة فما تعى ، وسوف يظل هذا البيان وتلك الفصاحة حجة على العالمين .

تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسولُ العرب ، وهم ما هم بيانا وفصاحة ، فخرّوا لها ساجدين وأذعنوا لها مُسلمين .

أما عن معجزته الثانية فهى فى حمايته أمة من أن تشيع فى أمم ، ولُغة من أن تذوب فى لغات .

فما نعرف شيئا حمى اللغة العربية من الضياع — مع تلك الأزمات العاصفة التى مرت بها ، والتى كم أودت مثيلات لها بلغات وبلبلت ألسنة — غير هذا الكتاب الكريم . أبعدت ما أبعدت الشعوب العربية عن الكلام بلغتها العربية وكان هو مردها إليها ، كلما أوشكت أن تنفصم صلتها بها ربطها هو بها .

وهكذا عاشت الأمة العربية بعيدة بكل ما فى يديها عن لغتها قريبة بهذا الكتاب وحده إلى لغتها .

وحين حَمى هذا الكتاب اللغة لأهلها حمى هؤلاء من أن يتفرقوا أيدى سبا ، فلو أن الزمن بلبل ألسنتهم أمما مختلفة ذات ألسنة مختلفة ما وجدت بينهم هذه الصلة الضامة من اجتماع على تراث خالد . كان هو بمثابة الأب الروحى الذى يصل بين الأرواح والنفوس والقلوب .

ويكذبك من ينكر عليك أثر اللغة فى التقريب بين شعوب مختلفة الجنس ، فما بالك بشعوب يكاد يجمعها جنس واحد .

وكما حفظ هذا الكتاب الكريم هذا المقوم للأمة العربية حفظ مُقوما آخر هو الدين ، فلقد عاش هذا الكتاب على الألسنة وفى القلوب فوق ما هو مكتوب يُسمع ويُتلى فى أوقات متلاحقة متصلة ، لا يكاد الناس ينسون حتى يتذكروا ، ولا يكادون يبعدون حتى يقربوا ، فإذا هم على دينهم كما هم على لغتهم ، وإذا هذه اللغة وذاك الدين يمسكان الأمة العربية فلا تضل عنها لغتها ولا تضل هى عن دينها .

ولا غرو أن كانت المسلمين به عنايات متصلة طالت وتنوعت ، وهذا أوان ضم هذا كله فى سَرد مختصر جامع يعرف به المسلم ما يتصل بقرآنه فى يُسر يسير ، دون أن يفوته شىء أو يُبهم عليه أمر .

الباب الثانى

القرآن الكريم

١ — أُمية الرسول

لقد كان محمد أميا لا يعرف أن يقرأ ولا يعرف أن يكتب ، ما فى ذلك شك ، يدُلك على ذلك اتخاذُه بعد أن أُوحى إليه كتّابا يكتبون عنه الوحى ، منهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وأبىّ بن كعب بن قيس ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومحمد بن مسلمة ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وثابت بن قيس ، وحنظلة بن الربيع ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عتبة ، والمغيرة ابن شعبة ، و شرحبيل بن حسنة . وكان أكثرهم كتابةً عنه : زيد بن ثابت ومعاوية[1] .

---

(١) تاريخ دمشق .

كما يدلك على ذلك أيضاً ما ذكره المؤرخون عند الكلام على غزوة « أحد » أن العباس وهو بمكة كتب إلى النبي كتابا يخبره فيه بتجمع قريش وخروجهم ، وأن العباس أرسل هذا الكتاب مع رجل من بنى غِفار ، وأن النبي حين جاءه الغفارى بكتاب العباس استدعى أبى بن كعب — وكان كاتبه — ودفع إليه الكتاب يقرؤه عليه ، وحين انتهى «أبى» من قراءة الكتاب استكتمه النبي .

ولو كان النبي غيرَ أميّ لكفى نفسه دعوة « أبى » لقراءة كِتاب العباس فى أمر ذى بال .

وثمة ثالثة تزيدك دليلا ثالثاً يذكرها المؤرخون أيضاً مع وفود وفد ثقيف على النبي . فلقد سألوا النبي حين أسلموا أن يكتب لهم كتابا فيه شروط . فقال لهم : اكتبوا ما بدا لكم ثم ائتونى به . فسألوه فى كتابهم أن يحل لهم الرِّبا والزنا . فأبى علىّ بن أبى طالب أن يكتب لهم . فسألوا خالد بن سعيد بن العاص أن يكتب لهم . فقال له على : تدرى ما تكتب ؟ قال : أكتب ما قالوا ورسول الله أولى بأمره . فذهبوا بالكتاب إلى رسول الله . فقال للقارىء : اقرأ . فلما انتهى إلى الربا ، قال له الرسول : ضع يدى عليها . فوضع يده . فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقى من الربا » ثم محاها . فلما بلغ الزنا وضع يده عليها وقال: « ولا تقربوا

الزنا » ثم محاها ، وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا[1] .

ولقد عثر الباحثون على الكتابين المرسلين من النبي إلى المقوقس وإلى المنذر بن ساوى ، والكتاب الأول محفوظ فى دار الآثار النبوية فى الآستانة ، وكان قد عَثر عليه عالم فرنسى فى دير بمصر قرب أخميم ؛ والكتاب الثانى محفوظ بمكتبة فينا .

ومن قبل هذه الأدلة يقول تعالى فى الرسول : « الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمى[2] » .ويقول تعالى فى الرسول أيضاً:«وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تَخُطه بيمينك »[3] .

ولم تكن البيئة العربية على هذا بيئة كاتبة قارئة ، بل كان ذلك فيها شيئاً يُعد ويحصى،وكان حظ المدينة من ذلك دون حظ مكة ، ولم يكن فى المدينة حين هاجر إليها الرسول غير بضعة عشر رجلا يعرفون الكتابة ، منهم : سعيد بن زُرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأُبى بن وهب ،وزيد بن ثابت ،ورافع بن مالك ،وأوس بن خَولى.ولقد أحس الرسول ذلك بعد هجرته إلى المدينة ، فكان أول مافعله بعد انتصاره فى بدر وأسره من أسر من رجال قريش القارئين الكاتبين ، أن جعل فِدية هؤلاء أن يعلِّم كلّ رجل منهم عشرةً من صبيان

(١) أسد الغابة ترجمة (تميم بن جراشة) .
(٢) الأعراف : ١٥٦ (٣) العنكبوت : ٤٨

المدينة ، وبهذا بدأت الكتابة تروج سوقها فى المدينة .

حتى إذا كان عهد عمر بن الخطاب أمر بجمع الصبيان فى المكتب ، وأمر عبد عامر بن عبد الخزاعى أن يتعهدهم بالتعليم ، وجعل له رزقاً على ذلك يتقاضاه من بيت المال .

وكان المعلم يجلس للصبيان بعد صلاة الصبح إلى أن يرتفع الضحى ، ومن بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر .

وحين خرج عمر إلى الشام وغاب عن المدينة شهراً استوحش إليه الناس ، وخرج صبيان المكتب للقائه على مَسيرة يوم من المدينة ، وكان ذلك يوم الخميس ، ورجعوا معه إلى المدينة يوم الجمعة ، وقد انقطعوا عن المكتب يومين أجازهما لهم عمر ، وكانت بعد ذلك عادة متبعة[1] .

وحين اختار الله لرسالته محمداً اختار فيه صفاتٍ حسية وصفاتٍ معنوية أمدها به وطبعه عليهما ، فوهبه من الأولى نفساً قوية وروحاً عالية وقلباً كبيراً وذهنا وقاداً وبصيرة نفاذه ولساناً مبيناً وفكرا واعياً ، ووهبه من الثانية صدق لسان وطهارة ذيل وعفة بصر وأمانة يد ورحمة قلب ورقة وجدان ونبل عاطفة ومضاء عزيمة ورحمة للناس جميعاً .

---

(١) عنوان البيان — الفواكه الدوانى على رسالة أبى زيدون القيروانى .

وكان اختيار الله له أميًّا لا يقرأ ولا يكتب يضيف إلى إذعان الناس له وإيمانهم برسالته سَبباً يفسره تعالى فى قوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك»[1]، ويبينه صدور هذا الوحى على لسانه يتلوه على قومه بكرة وعشيا ، ولا تبديل فيه ولا تغيير ، وما يقوى على مثلها إلا من يملك أسفارا يعود إليها ليستظهر ما فيها .

وليس فى منطق الرسالات أن تكون الحجة للناس عليها ، بل هى لا تطالع الناس إلا والحجة لها عليهم ، كما لا تطالعهم إلا وفى صفحاتها الجواب على كل ما يصوِّره لهم تصوُّرهم ؛ تحوط السماء رسالاتها بهذا كله لكيلا يكون للناس على الله حجة ، وليكون منطق الرسالات من منطق الناس ، لا تلتوى عليهم الرسالة فيلتووا هم عليها .

ولم يكن اختيار محمد قارئاً وكاتباً شيئاً يَعِزُّ على السماء ، ولكنه كان شيئاً إن تم يُهوِّن من حجة السماء فى نفوس الناس ، وكانوا عندها يملكون أن يقولوا باطلا ما حرص القرآن على ألا يقولوه : من أن هذا الذى جاء به الرسول أخذه من أسفار سابقة.

وهذه التى ألزمتها حجة السماء السلفَ من قبل فأذعنوا لها عن

---

(١) العنكبوت : ٤٨

وعى وبصر — وأعنى به أمية الرسول — أراد أن يثيرها نفر من الخلف من بعد ليخرجوا على حجة السماء عن غير وعى ولا بصر .

غير أننا نفيد من هذا الذى يريد الخلف أن يثيروه تأكيد المعنى الذى قدمناه من أن حجة السماء تجىء أشمل ما تكون بشكوك العقول ، محيطة بكل ما يصدر عنهم فيها ، يستوى فى ذلك أولهم وآخرهم .

وقد ننسى مع هؤلاء المخالفين الطاعنين تقرير القرآن الصادق عن أمية محمد والأدلة القائمة فى ظل القرآن على ذلك . قد ننسى هذا وذاك لنسائلهم : أى جديد يفيدهم هذا — إن صح — وقد مضى على رسالة محمد ما يقرب من أربعة عشر قرنا خطا فيها العلم والبحث خطوات سريعة وما وجدنا شيئاً ينال من هذه الرسالة من قرب أو من بعد ، جهر به أو أسر من يريدون أن يجعلوا محمدا قارئاً كاتبا ، وأن يجعلوا من هذا سببا إلى أنه نقل عن أسفار سابقة .

٢ — نزول الوحى

وقد تقدم أن ابتداء نزول الوحى كان فى السابع عشر من رمضان ، من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وأن قوله تعالى: « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى

الجمعان »[1] يشير إلى ذلك ، فالتقاء الجمعين — أعنى المسلمين والمشركين ببدر — كان فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفى مثلها من السنة الحادية والأربعين من مولده كان ابتداء نزول الفرقان . ينضم إلى هذه الآية قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »[2] .

والصحيح أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »[3] ثم كانت فترة الوحى التى أشرنا إليها من قبل والتى مكثت سنين ثلاثا . وبعدها أخذ القرآن ينزل على الرسول منجما ، فنزلت : ن والقلم ، ثم : المزمل ، ثم : المدثر ، إلى غير ذلك مما نزل مُقامَه صلى الله عليه وسلم بمكة ، منذ بُعث إلى أن هاجر ، وكان ذلك اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، أى منذ اليوم السابع عشر من رمضان من سنة إحدى وأربعين من مولده إلى اليوم الأول من شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين من مولده .

والمتفق عليه ، وعليه المصحف الذى بين أيدينا ، أن المدنى من من سور القرآن ثمان وعشرون سورة هى :

---

(١) الأنفال : ٤١ (٢) البقرة : ١٨٥

(٣) العلق : ١

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الرعد (٨) الحج (٩) النور (١٠) الأحزاب (١١) محمد (١٢) الفتح (١٣) الحجرات (١٤) الرحمن (١٥) الحديد (١٦) المجادلة (١٧) الحشر (١٨) الممتحنة (١٩) الصف (٢٠) الجمعة (٢١) المنافقون (٢٢) التغابن (٢٣) الطلاق (٢٤) التحريم (٢٥) الإنسان (٢٦) البينة (٢٧) الزلزلة (٢٨) النصر .

وما بعد هذه السور الثمانى والعشرين فهو مكى ، أعنى نزل بمكة وما حواليها . أما على رأى من يقول : إن المراد بالمكى هو ماجاء خطابا لأهل مكة وأن المدنى هو ماجاء خطابا لأهل المدينة ، فالأمر يختلف . وإذا عرفنا أن سور القرآن عددها أربع عشرة ومائة سورة[1] ، كان مانزل بمكة هو ست وثمانون سورة .

وإذا شئت مزيدا من الحصر فعدد آيات السور المدنية الثمانى والعشرين هو ثلاث وعشرون وستمائة وألف آية «١٦٢٣» ، وعدد آيات السور المكية الست والثمانين هو ثلاث عشرة وستمائة

---

(١) هذا ما عليه الاجماع . ومن السلف من يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، وعلى هذا يكون عدد السور ١١٣ ؛ وفى مصحف أبى ١١٦ لأنه زاد فى الآخر سورتين هما الحيد والخلع .

وأربعة آلاف آية « ٤٦١٣ » فيكون مجموع آى القرآن مدنيه ومكيه : ستا وثلاثين ومائتين وستة آلاف « ٦٢٣٦ » . وهذا هو المعتد به .

وأنت بهذا تجد أن أكثر القرآن نزل بمكة قبل الهجرة ، وأن السور المدنية تكاد تعدل الثلث من مجموع السور المكية ، تزيد على الثلث قليلا ، وأن مجموع آيات السور المدنية يكاد يعدل الثلث من مجموع آيات السور المكية ، ينقص عن الثلث قليلا .

٣ — عدد الآيات

والآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، وهى مسألة توقيفية أخذت عن الرسول . وهذا الاختلاف الذى وقع بين السلف فى عدد الآيات مرجعه إلى اختلاف السامعين عن الرسول فى ضبط الوقف والوصل ، فالمعروف أنه كان صلى الله عليه وسلم يقف على رءوس الآى للتوقيف ، فإذا عُلم محلها وصل للتمام ، فوَهم بعض السامعين عند الوصل أن ليس ثمة فصل ، ومن هنا كان الخلاف .

وسُور القرآن بالنظر إلى اختلاف عدد آياتها ثلاثة أقسام :

١ — قسم لم يُختلف فيه إجمالا ولا تفصيلا .

٢ – قسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا .

٣ – قسم اختلف فيه تفصيلا وإجمالا .

فالقسم الذى لم يختلف فيه إجمالا وتفصيلا أربعون سورة ، وهى :

(١) يوسف : ١١١ – (٢) الحجر : ٩٩ – (٣) النحل : ١٢٨ – (٤) الفرقان : ٧٧ – (٥) الأحزاب : ٧٣ – (٦) الفتح : ٢٩ – (٧) الحجرات : ١٨ – (٨) التغابن : ١٨ (٩) ق : ٤٥ – (١٠) الذاريات : ٦٠ – (١١) القمر : ٥٥ – (١٢) الحشر : ٢٤ – (١٣) الممتحنة : ١٣ – (١٤) الصف : ١٤ – (١٥) الجمعة : ١١ – (١٦) المنافقون : ١١ – (١٧) الضحى : ١١ – (١٨) العاديات : ١١ – (١٩) التحريم : ١٢ – (٢٠) ن : ٥٢ – (٢١) الإنسان : ٣١ – (٢٢) المرسلات : ٥٠ – (٢٣) التكوير : ٢٩ – (٢٤) الانفطار : ١٩ – (٢٥) سبح : ١٩ – (٢٦) التطفيف : ٣٦ – (٢٧) البروج : ٢٢ – (٢٨) الغاشية : ٢٦ (٢٩) البلد : ٢٠ – (٣٠) الليل : ٢١ – (٣١) ألم نشرح : ٨ – (٣٢) التين : ٨ – (٣٣) الهاكم : ٨ – (٣٤) الهمزة : ٩ – (٣٥) الفيل : ٥ – (٣٦) الفلق : ٥ – (٣٧) تبت : ٥ – (٣٨) الكافرون : ٦ – (٣٩) الكوثر : ٣ – (٤٠) النصر : ٣ .

والقسم الثانى : وهو الذى اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا ، أربع سور ، وهى :

(١) القصص : ٨٨ — يعد أهل الكوفة « طسم » آية ، ويعد غيرهم بدلها « أمة من الناس يسقون » (الآية : ٢٢) .

(٢) العنكبوت : ٦٩ — يعد أهل الكوفة « ألم » آية . ويعد البصريون بدلها « مخلصين له الدين » (الآية : ٦٥) . والشاميون « وتقطعون السبيل » (الآية : ٢٩) .

(٣) الجن : ٢٨ — يعد المكى « لن يجيرنى من الله أحد » (الآية ٢٢) . ويعد غيره بدلها « ولن أجد من دونه ملتحداً » (الآية : ٢٢) .

(٤) والعصر : ٣ — الكثرة تعد « والعصر » آية ، غير المدنى فإنه يعد بدلها « وتواصوا بالحق » (الآية : ٣) .

وأما القسم الثالث ، وهو الذى اختلف فيه تفصيلا وإجمالا ، سبعون سورة ، وهى :

(١) الفاتحة — من حيث التفصيل ، فالجمهور على أنها سبع آيات ، يعد الكوفى والمكى البسملة دون « أنعمت عليهم » . ويعكس الباقون . ومن حيث الإجمال : فالحسن يعد آياتها ثمانى آيات حين يعد البسملة و « أنعمت عليهم » آيتين . ويعدها بعضهم ستا ، قلا يعدون هاتين الآيتين ، كما يعدها آخرون تسعا ، فيعدون هاتين ويضمون إليهما « إياك نعبد » .

(٢) البقرة — ٢٥٨ ، وقيل : ٢٥٧ ، وقيل : ٢٥٦ .

(٣) آل عمران - ٢٠٠ ، وقيل : ١٩٩ .

(٤) النساء — ١٧٥ ، وقيل : ١٧٦ ، وقيل : ١٧٧ .

(٥) المائدة — ١٢٠ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .

(٦) الأنعام — ١٦٥ ، وقيل : ١٦٦ ، وقيل : ١٦٧ .

(٧) الأعراف — ٢٠٥ ، وقيل : ٢٠٦ .

(٨) الأنفال — ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٧ .

(٩) براءة — ١٣٠ ، وقيل : ١٢٩ .

(١٠) يونس — ١١٠ ، وقيل : ١٠٩ .

(١١) هود — ١٢١ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .

(١٢) الرعد — ٤٣ ، وقيل : ٤٤ ، وقيل : ٤٧ .

(١٣) ابراهيم — ٥١ ، وقيل : ٥٢ ، وقيل : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .

(١٤) الإسراء — ١١٠ ، وقيل : ١١١ .

(١٥) الكهف — ١٠٥ ، وقيل : ١٠٦ ، وقيل : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .

(١٦) مريم — ٩٩ ، وقيل : ٩٨ .

(١٧) طه — ١٣٠ ، وقيل : ١٣٢ ، وقيل : ١٣٤ ، وقيل : ١٣٥ . وقيل : ١٤٠ .

(١٨) الأنبياء — ١١١ ، وقيل : ١١٢ .

(١٩) الحج — ٧٤ ، وقيل : ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
(٢٠) المؤمنون — ١١٨ ، وقيل : ١١٩ .
(٢١) النور — ٦٢ ، وقيل : ٦٤ .
(٢٢) الشعراء — ٢٢٦ ، وقيل : ٢٢٧ .
(٢٣) النمل — ٩٢ ، وقيل : ٩٤ ، وقيل : ٩٥ .
(٢٤) الروم — ٦٠ ، وقيل : ٥٩ .
(٢٥) لقمان — ٣٣ ، وقيل : ٣٤ .
(٢٦) السجدة — ٣٠ ، وقيل : ٢٩ .
(٢٧) سبأ — ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
(٢٨) فاطر — ٦٤ ، وقيل : ٦٥ .
(٢٩) يس — ٨٣ ، وقيل : ٨٢ .
(٣٠) الصافات — ١٨١ ، وقيل : ١٨٢ .
(٣١) ص — ٨٥ ، وقيل : ٨٦ ، وقيل : ٨٨ .
(٣٢) الزمر — ٧٢ ، وقيل : ٧٣ ، وقيل : ٧٥.
(٣٣) غافر — ٨٢ ، وقيل : ٨٤ ، وقيل : ٨٥ ، وقيل : ٨٦ .
(٣٤) فصلت — ٥٢ ، وقيل : ٥٣ ، وقيل : ٥٤ .
(٣٥) الشورى — ٥٣ ، وقيل : ٥٠ .
(٣٦) الزخرف — ٨٩ ، وقيل : ٨٨ .
(٣٧) الدخان — ٥٦ ، وقيل : ٥٧ ، وقيل : ٥٩ .

(٣٨) الجاثية — ٣٦ ، وقيل : ٣٧ .

(٣٩) الأحقاف — ٣٤ ، وقيل : ٣٥ .

(٤٠) القتال — ٤٠ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٨ .

(٤١) الطور — ٤٧ ، وقيل : ٤٨ ، وقيل : ٤٩ .

(٤٢) النجم — ٦١ ، وقيل : ٦٢ .

(٤٣) الرحمن — ٧٧ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل :٧٨ .

(٤٤) الواقعة — ٩٩ ، وقيل : ٩٧ ، وقيل : ٩٦ .

(٤٥) الحديد — ٣٨ ، وقيل : ٣٩ .

(٤٦) المجادلة — ٢٢ ، وقيل : ٢١ .

(٤٧) الطلاق — ١١ ، وقيل : ١٢ .

(٤٨) الملك — ٣٠ ، وقيل : ٣١ ، والصحيح الأول .

(٤٩) الحاقة — ٥١ ، وقيل : ٥٢ .

(٥٠) المعارج — ٤٤ ، وقيل : ٤٣ .

(٥١) نوح — ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٢٨

(٥٢) المزمل — ٢٠ ، وقيل : ١٩ ، وقيل : ١٨

(٥٣) المدثر — ٥٥ ، وقيل : ٥٦

(٥٤) القيامة — ٤٠ ، وقيل : ٣٩

(٥٥) النبأ — ٤٠ ، وقيل : ٤١

(٥٦) النازعات — ٤٥ ، وقيل : ٤٦

(٥٧) عبس — ٤٠ ، وقيل : ٤١ ، وقيل : ٤٢

(٥٨) الانشقاق — ٢٥ ، وقيل : ٢٤ ، وقيل : ٢٣

(٥٩) الطارق — ١٧ ، وقيل : ١٦

(٦٠) الفجر — ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٣٢

(٦١) الشمس — ١٥ ، وقيل : ١٦

(٦٢) العلق — ٢٠ ، وقيل : ١٩

(٦٣) القدر — ٥ ، وقيل : ٦

(٦٤) البينة — ٨ ، وقيل : ٩

(٦٥) الزلزلة — ٩ ، وقيل : ٨

(٦٦) القارعة — ٨ ، وقيل : ١٠ ، وقيل : ١١

(٦٧) قريش — ٤ ، وقيل : ٥

(٦٨) الماعون — ٧ ، وقيل : ٦

(٦٩) الإخلاص — ٤ ، وقيل : ٥

(٧٠) الناس — ٧ ، وقيل : ٦

٤ ـ ترتيب الآيات

وكما كان ضبط الآيات بفواصلها توقيفا كذلك كان وضعها فى مواضعها توقيفا ، دليل ذلك الآية (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) — البقرة : ٢٨١ — كانت آخر مانزل ، فوضعها النبى عن وحى من ربه بين آيتى الربا والدين من سورة البقرة ، وهكذا كان الأمر فى سائر الآيات .

(١) فى سورة الأنعام ـ وهى مكية ـ الآيات : ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٣ ، فهى مدنية .

(٢) وفى سورة الأعراف ـ وهى مكية ـ الآيات من ١٦٣ ـ ١٧٠ ، فهى مدنية .

(٣) وفى سورة يونس ـ وهى مكية ـ الآيات : ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ ، فهى مدنية .

(٤) وفى سورة هود ـ وهى مكية ـ الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ ، فهى مدنية .

(٥) وفى سورة يوسف ـ وهى مكية ـ الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ ، فهى مدنية .

(٦) وفى سورة إبراهيم ـ وهى مكية ـ الآيتان : ٢٨ و ٢٩ ، فهما مدنيتان .

(٧) وفى سورة الحجر ـ وهى مكية ـ الآية : ٨٧، فهى مدنية.

(٨) وفى سورة النحل ـ وهى مكية ـ الآيات الثلاث الأخيرة ، فهى مدنية .

(٩) وفى سورة الإسراء ـ وهى مكية ـ الآيات : ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ ـ ٨٠ ، فهى مدنية .

(١٠) وفى سورة الكهف ـ وهى مكية ـ الآيات : ٢٨ و ٨٣ ـ ١٠١ ، فهى مدنية .

(١١) وفى سورة مريم ـ وهى مكية ـ الآيتان : ٥٨ و ٧١ ، فهما مدنيتان .

(١٢) وفى سورة طه ـ وهى مكية ـ الآيتان : ١٣٠ و ١٣١ ، فهما مدنيتان .

(١٣) وفى سورة الفرقان ـ وهى مكية ـ الآيات : ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ ، فهى مدنية .

(١٤) وفى سورة الشعراء ـ وهى مكية ـ الآيات : ١٩٧ و ٢٢٤ ـ إلى آخر السورة ، فهى مدنية .

(١٥) وفى سورة القصص ـ وهى مكية ـ الآيات : ٥٢ ـ ٥٥ ، فهى مدنية .

(١٦) وفى سورة العنكبوت ـ وهى مكية ـ الآيات من ١ ـ ١١ ، فهى مدنية .

(١٧) وفى سورة الروم ـ وهى مكية ـ الآية : ١٧، فهى مدنية.

(١٨) وفى سورة لقمان ـ وهى مكية ـ الآيات : ٢٧و٢٨و ٢٩ ، فهى مدنية .

(١٩) وفى سورة السجدة ـ وهى مكية ـ الآيات من ١٦ ـ ٢٠ ، فهى مدنية .

(٢٠) وفى سورة سبأ ـ وهى مكية ـ الآية : ٦ ، فهى مدنية.

(٢١) وفى سورة يس ـ وهى مكية ـ الآية : ٤٥ ، فهى مدنية .

(٢٢) وفى سورة الزمر ـ وهى مكية ـ الآيات : ٥٢ و ٥٣و٥٤، فهى مدنية .

(٢٣) وفى سورة غافر ـ وهى مكية ـ الآيتان : ٥٦ و ٥٧ ، فهما مدنيتان .

(٢٤) وفى سورة الشورى ـ وهى مكية ـ الآيات : ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ ، فهى مدنية .

(٢٥) وفى سورة الزخرف ـ وهى مكية ـ الآية : ٥٤، فهى مدنية.

(٢٦) وفى سورة الأحقاف ـ وهى مكية ـ الآيات : ١٠ و ١٥ و ٣٥ ، فهى مدنية .

(٢٧) وفى سورة ق ـ وهى مكية ـ الآية : ٣٨ ، فهى مدنية .

(٢٨) وفى سورة النجم ـ وهى مكية ـ الآية : ٣٢ ، فهى مدنية .

(٢٩) وفى سورة القمر ـ وهى مكية ـ الآيات : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ ، فهى مدنية .

(٣٠) وفى سورة الواقعة ـ وهى مكية ـ الآيتان : ٨١ و ٨٢ ، فهما مدنيتان .

(٣١) وفى سورة القلم ـ وهى مكية ـ الآيات : ١٧ ـ ٣٣ و ٤٨ ـ ٥٠ ، فهى مدنية .

(٣٢) وفى سورة المزمل ـ وهى مكية ـ الآيات : ١٠ و ١١ و ٢٠ ، فهى مدنية .

(٣٣) وفى سورة المرسلات ـ وهى مكية ـ الآية : ٤٨ ، فهى مدنية .

(٣٤) وفى سورة الماعون ـ وهى مكية ـ الآيات من الرابعة إلى آخر السورة ، فهى مدنية .

هذا عن السور المكية وما فيها من الآيات المدنية ، أما عن السور المدنية وما فيها من آيات مكية :

(٣٥) ففى سورة البقرة ـ وهى مدنية ـ الآية : ٢٨١ ، فقد نزلت بمنى فى حجة الوداع .

(٣٦) وفى سورة المائدة ـ وهى مدنية ـ الآية : ٣ ، فقد نزلت بعرفات فى حجة الوداع .

(٣٧) وفى سورة الأنفال ـ وهى مدنية ـ الآيات من ٣٠ — ٣٦ ، فهى مكية .

(٣٨) وفى سورة التوبة ـ وهى مدنية ـ الآيتان الأخيرتان ، فهما مكيتان .

(٣٩) وفى سورة الحج ـ وهى مدنية ـ الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و٥٥ ، فقد نزلت بين مكة والمدينة .

(٤٠) وفى سورة محمد ـ وهى مدنية ـ الآية : ١٣ ، فقد نزلت فى الطريق أثناء الهجرة .

ويرتب الفقهاء على عدد الآيات أحكاما فقهية ، من ذلك مثلا : من لم يحفظ الفاتحة فيجب عليه فى الصلاة بدلها سبع آيات . هذا فيمن عد الفاتحة سبعاً ، كما لا تصح الصلاة بنصف آية .

وحدّ السورة فى القرآن أنها تشتمل على آيات ذات فاتحة وخاتمة. وأقل الآيات التى تشتمل عليها السورة ثلاث .

٥ — أسماء السور

وكما كانت الآيات بفواصلها وبترتيبها توقيفا كذلك كانت الحال فى السور فى جمعها وفى أسمائها ، فكلاهما — أعنى اسم السورة وما تنتظمه من آيات — توقيف .

وقد يكون للسورة اسم واحد ، وعليه الكثرة من سور القرآن ، وقد يكون لها اسمان فأكثر ، من ذلك مثلا :

١ — الفاتحة ، فهى تسمى أيضاً : أم الكتاب ، والسبع المثانى ، والحمد ، والواقية ، والشافية .

٢ — النمل ، فهى تسمى أيضاً : سورة سليمان .

٣ — السجدة ، فهى تسمى أيضاً : سورة المضاجع .

٤ — فاطر ، فهى تسمى أيضاً : سورة الملائكة .

٥ — الزمر ، فهى تسمى أيضاً : سورة الغرف .

٦ — غافر ، فهى تسمى أيضاً : سورة المؤمن .

٧ — الجاثية ، فهى تسمى أيضاً : سورة الدهر .

٨ — محمد ، فهى تسمى أيضاً : سورة القتال .

٩ — الصف ، فهى تسمى أيضاً : سورة الحواريين .

١٠ — تبارك ، فهى تسمى أيضاً : سورة الملك .

١١ — عم ، فهى تسمى أيضاً : سورة النبأ ، والتساؤل ، والمعصرات .

١٢ — لم يكن ، فهى تسمى أيضاً : سورة أهل الكتاب ، والبينة ، والقيامة .

٦ — ترتيب السور

أما عن ترتيب السور ، فمن السلف من يقول إنه توقيفى ، ويستدل على ذلك بورود الحواميم مرتبة ولاءً وكذا الطواسين ، على حين لم ترتب المسبحات ولاء ، بل جاءت مفصولا بين سورها ، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس ، مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص .

كما يجعلون فيما نقله « الشهرستانى محمد بن عبد الكريم » فى تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » عند الكلام على قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى » : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ؛ دليلا على أن هذا الترتيب كان بتوقيف من النبى .

والذين يقولون إن ترتيب السور اجتهادى يستدلون على ذلك بورود السور مختلفة الترتيب فى المصاحف الأربعة التى أُثرت عن أربعة من كبار الصحابة ، هم : على بن أبى طالب ، وأُبى بن كعب ، وعبدالله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس .

أما عن مصحف « على » فيعزى إليه أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأقسم ألاّ يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن ، فجلس فى بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن ، فكان أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه .

ويروى ابن النديم فى كتابه « الفهرست » أن هذا المصحف كان عند أهل جعفر ، ويقول : « ورأيت أنا فى زماننا عند أبى يعلى حمزة الحسنى رحمه الله مصحفا قد سقطت منه أوراق بخط على ابن أبى طالب ، يتوارثه بنو حسن على مر الزمان . وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف » .

غير أن كتاب « الفهرست » فى طبعتيه الأوربية والمصرية يسقط منه ما بعد هذا ، فلا يورد ترتيب السور الذى أشار إليه .

ونجد اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب ، وهو من رجال القرن الثالث الهجرى ، يطالعنا بما سقط من الفهرست فى الجزء الثانى

من تاريخه (١٥٢ — ١٥٤) طبعة « بريل » سنة ١٨٨٣م . فيقول قبل أن يسوق الترتيب : وروى بعضهم أن على بن أبى طالب عليه السلام كان جمعه ـ يعنى القرآن ـ لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتى به يحمله على جمل فقال : هذا القرآن جمعته ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء : جزء البقرة ، جزء آل عمران ، جزء النساء جزء المائدة ، جزء الأنعام ، جزء الأعراف ، جزء الأنفال ، وذلك باعتبار أول كل جزء .

ويروى غير واحد أن مصحف « على » كان على ترتيب النزول، وتقديم المنسوخ على الناسخ[1] .

وأما عن مصحف « أبى » فيقول ابن النديم : قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا قال : كان تأليف السور فى قراءة أبى بن كعب بالبصرة فى قرية يقال لها : قرية الأنصار ، على رأس فرسخين ، عند محمد بن عبدالملك الأنصارى ، أخرج إلينا مصحفاً وقال : هو مصحف « أبى » رويناه عن آبائنا . فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآى . ثم مضى يذكر السور مرتبة كما جاءت فى هذا المصحف .

---

(١) تاريخ القرآن للزنجانى (ص ٢٦) .

وأما عن مصحف عبدالله بن مسعود فينقل ابن النديم عن الفضل بن شاذان أيضاً فيقول : قال : وجدت فى مصحف عبدالله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب . ثم يسوق ابن النديم هذا الترتيب .

ثم يقول ابن النديم : قال أبو شاذان : قال ابن سيرين : وكان عبد الله بن مسعود لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ولا فاتحة الكتاب.

ثم يقول ابن النديم : رأيت عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود ، ليس فيها مصحفان متفقان وأكثرها فى رق كثير النسخ . وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتى سنة فيه فاتحة الكتاب .

وأما عن مصحف عبدالله بن عباس (٦٨ هـ) وكان رأس المفسرين ، فقد ذكر الشهرستانى محمد بن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) هذا الترتيب فى مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » .

وهاك جدولا يجمع الترتيب فى هذه المصاحف الأربعة :

مصحف على		مصحف أبى	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
١ ـ البقرة	الجزء الأول	فاتحة الكتاب	البقرة	اقرأ
٢ ـ يوسف		البقرة	النساء	ن
٣ ـ العنكبوت		النساء	آل عمران	والضحى
٤ ـ الروم		آل عمران	المص	المزمل
٥ ـ لقمان		الأنعام	الأنعام	المدثر
٦ ـ حم السجدة		الأعراف	المائدة	الفاتحة
٧ ـ الذاريات		المائدة	يونس	تبت
٨ ـ هل أتى على الإنسان		الأنفال	براءة	كورت
٩ ـ ألم تنزيل		التوبة	النحل	الأعلى
١٠ ـ السجدة		هود	هود	والليل
١١ ـ النازعات		مريم	يوسف	والفجر
١٢ ـ إذا الشمس كورت		الشعراء	بنى اسرائيل	ألم نشرح
١٣ ـ إذا السماء انفطرت		الحج	الأنبياء	الرحمن
١٤ ـ إذا السماء انشقت		يوسف	المؤمنون	والعصر
١٥ ـ سبح اسم ربك الأعلى		الكهف	الشعراء	الكوثر
١٦ ـ لم يكن		النحل	الصافات	التكاثر

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
١٧ ـ آل عمران		الأحزاب	الأحزاب	الدين
١٨ ـ هود		بنى اسرائيل	القصص	الفيل
١٩ ـ الحج		الزمر	النور	الكافرون
٢٠ ـ الحجر		حم تنزيل	الأنفال	الإخلاص
٢١ ـ الأحزاب		طه	مريم	النحل
٢٢ ـ الدخان		الأنبياء	العنكبوت	الأعمى
٢٣ ـ الحاقة		النور	الروم	القدر
٢٤ ـ سأل سائل		المؤمنون	يس	والشمس
٢٥ ـ عبس وتولى		حم المؤمن	الفرقان	البروج
٢٦ ـ والشمس وضحاها		الرعد	الحج	التين
٢٧ ـ إنا أنزلناه		طسم	الرعد	قريش
٢٨ ـ إذا زلزلت		القصص	سبأ	القارعة
٢٩ ـ ويل لكل همزة		طس	الملائكة	القيامة
٣٠ ـ ألم تر كيف		سليمان	إبراهيم	الهمزة
٣١ ـ لإيلاف قريش		الصافات	ص	والمرسلات

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
٣٢ ـ النساء	الجزء الثاني	داود	الذين كفروا	ق
٣٣ ـ النحل		ص	القمر	البلد
٣٤ ـ المؤمنون		يس	الزمر	الطارق
٣٥ ـ يس		أصحاب الحجر	الحواميم	القمر
٣٦ ـ حمعسق		حم عسق	حم المؤمن	ص
٣٧ ـ الواقعة		الروم	حم الزخرف	الأعراف
٣٨ ـ تبارك الملك		الزخرف	السجدة	الجن
٣٩ ـ يأيها المدثر		حم السجدة	الأحقاف	يس
٤٠ ـ أرأيت		إبراهيم	الجاثية	الفرقان
٤١ ـ تبت		الملائكة	الدخان	الملائكة
٤٢ ـ قل هو الله أحد		الفتح	إنا فتحنا	مريم
٤٣ ـ والعصر		محمد	الحديد	طه
٤٤ ـ القارعة		الحديد	سبح	الشعراء
٤٥ ـ والسماء ذات البروج		الظهار	الحشر	النمل
٤٦ ـ والتين والزيتون		تبارك	تنزيل	القصص
٤٧ ـ طس		الفرقان	السجدة	بنى اسرائيل

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
٤٨ ـ النمل	الجزء الرابع	ألم تنزيل	ق	يونس
٤٩ ـ المائدة		نوح	الطلاق	هود
٥٠ ـ يونس		الأحقاف	الحجرات	يوسف
٥١ ـ مريم		ق	تبارك الذى بيده الملك	الحجر
٥٢ ـ طسم		الرحمن	التغابن	الأنعام
٥٣ ـ الشعراء		الواقعة	للمنافقون	الصافات
٥٤ ـ الزخرف		الجن	الجمعة	لقمان
٥٥ ـ الحجرات		النجم	الحواريون	سبأ
٥٦ ـ ق		ن	قل أوحى	الزمر
٥٧ ـ اقتربت الساعة		الحاقة	إنا أرسلنا نوحا	المؤمن
٥٨ ـ الممتحنة		الحشر	المجادلة	حم السجدة
٥٩ ـ والسماء والطارق		الممتحنة	الممتحنة	حم عسق
٦٠ ـ لا أقسم بهذا البلد		المرسلات	يأيها النبى لم تحرم	الزخرف
٦١ ـ ألم نشرح لك		عم يتساءلون	الرحمن	الدخان
٦٢ ـ والعاديات		الإنسان	النجم	الجاثية
٦٣ ـ إنا أعطيناك الكوثر		لا أقسم	الذاريات	الأحقاف

مصحف على		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
٦٤ ـ قل يأيها الكافرون	الجزء الرابع	كورت	الطور[1]	الذاريات
٦٥ ـ الأنعام	الجزء الخامس	النازعات	اقتربت الساعة	الغاشية
٦٦ ـ سبحان		عبس	الحاقة	الكهف
٦٧ ـ اقتربت		المطففون	إذا وقعت	النحل
٦٨ ـ الفرقان		إذا السماء انشقت	ن والقلم	نوح
٦٩ ـ موسى		التين	النازعات	إبراهيم
٧٠ ـ فرعون		اقرأ باسم ربك	سأل سائل	الأنبياء
٧١ ـ حم		الحجرات	المدثر	المؤمنون
٧٢ ـ المؤمن		المنافقون	المزمل	الرعد
٧٣ ـ المجادلة		الجمعة	المطففين	الطور
٧٤ ـ الحشر		النبي	عبس	الملك
٧٥ ـ الجمعة		الفجر	الدهر	الحاقة
٧٦ ـ المنافقون		الملك	القيامة	المعارج
٧٧ ـ ن والقلم		والليل إذا يغشى	المرسلات	النساء

(١) وفى رواية أخرى : الطور قبل الذاريات . ابن النديم .

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
٧٨ ـ إنا أرسلنا نوحا	الجزء الخامس	إذا السماء انفطرت	عم يتساءلون	والنازعات
٧٩ ـ قل أوحي إلى		الشمس وضحاها	التكوير	انفطرت
٨٠ ـ المرسلات		والسماء ذات البروج	الانفطار	انشقت
٨١ ـ والضحى		الطارق	هل أتاك حديث الغاشية	الروم
٨٢ ـ الهاكم		سبح اسم ربك الأعلى	سبح اسم ربك الأعلى	العنكبوت
٨٣ ـ الأعراف	الجزء السادس	الغاشية	والليل إذا يغشى	المطففون
٨٤ ـ إبراهيم		عبس	الفجر	البقرة
٨٥ ـ الكهف		الصف	البروج	الأنفال
٨٦ ـ النور		الضحى	انشقت	آل عمران
٨٧ ـ ص		ألم نشرح	اقرأ باسم ربك	الحشر
٨٨ ـ الزمر		القارعة	لا اقسم بهذا البلد	الأحزاب
٨٩ ـ الشريعة		التكاثر	والضحى	النور
٩٠ ـ الذين كفروا		الخلع	ألم نشرح	الممتحنة
٩١ ـ الحديد		الجيد	والسماء والطارق	الفتح

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
٩٢ ـ لا أقسم بيوم القيامة	الجزء السادس	اللهم إياك نعبد	والعاديات	النساء
٩٣ ـ عم يتساءلون		إذا زلزلت	أرأيت	إذا زلزلت
٩٤ ـ الغاشية		العاديات	القارعة	الحج
٩٥ ـ والفجر		أصحاب الفيل	لم يكن الذين كفروا	الحديد
٩٦ ـ والليل إذا يغشى		التين	الشمس وضحاها	محمد
٩٧ ـ إذا جاء نصر الله		الكوثر	التين	الإنسان
٩٨ ـ الأنفال	الجزء السابع	القدر	ويل لكل همزة	الطلاق
٩٩ ـ براءة		الكافرون	الفيل	لم يكن
١٠٠ ـ طه		النصر	لإيلاف قريش	الجمعة
١٠١ ـ الملائكة		أبي لهب	التكاثر	ألم السجدة
١٠٢ ـ الصافات		قريش	إنا أنزلناه	المنافقون
١٠٣ ـ الأحقاف		الصمد	والعصر	المجادلة
١٠٤ ـ الفتح		الفلق	إذا جاء نصر الله	الحجرات
١٠٥ ـ الطور		الناس	الكوثر	التحريم

مصحف علي		مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس
١٠٦ ـ النجم	الجزء السابع		الكافرون	التغابن
١٠٧ ـ الصف			المسد	الصف
١٠٨ ـ التغابن			قل هو الله أحد	المائدة
١٠٩ ـ الطلاق				التوبة
١١٠ ـ المطففون				النصر
١١١ ـ المعوذتين				الواقعة
١١٢ ـ				والعاديات
١١٣ ـ				الفلق
١١٤ ـ				الناس

٧ — الحكمة فى نزول القرآن منجماً

وفيما بين السابع عشر من رمضان — من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وكان بدء نزول الوحى ، وإلى ما قبل موته صلى الله عليه وسلم بأيام لاتجاوز الواحد والثمانين ولا تنقص عن العشرة ، وكان آخر مانزل من الوحى ، أى فى نحو من إحدى وعشرين سنة ، أو على الأصح فى نحو من ثمانى عشرة سنة ، بإسقاط المدة التى فتر فيها الوحى والتى بلغت ثلاث سنين — نزل هذا القرآن منجَّماً يشرع للناس ، ويتابع الأحـــداث ، ويجيب ويبين « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً[1] ». « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا »[2].

وما كانت حكمة السماء تقضى إلا بهذا مع أُمة يراد لها أولا التحوُّل من عقائد إلى عقيدة ، والخروج من وثنية إلى دين ، ومن أوهام وظنون إلى مَنطق وحق ، ومن لا إيمان إلى إيمان .

تلك خطوة أولى كان من الحكمة أن تبدأ بها الدعوة وتفرغ لها حتى إذا ما ضمت الناس على الطريق أخذتهم بما تحمى إيمانهم به ، فحاطتهم بعبادات وألزمتهم بواجبات ، والناس لا يَمضون فيما جد

---

(١) الفرقان : ٣٣ (٢) الإسراء : ١٠٦

عليهم خُرساً لا ينطقون ، وعُمياً لا ينظرون ، وغفلا لا يتدبّرون ، فهم مع هذا كله سائلون يتبينون ، والوحى يتابعهم فى كل ما عنه يستفسرون ، إذ به تمام الرسالة .

ثم إن هذه الدعوة السماوية بدأت جهاداً وعاشت جهاداً ، أملته الأيام و تمخّضت عنه الأعوام ، وهو وإن كان فى علم السماء قبل أن يقع لكنه كان على علم الناس جديداً لم يقع ، وكان لابد أن يلقنوه مع زمانه وأوانه .

ثم ما أكثر ما أخذ الناسُ وأعطوا فى ظل الدعوة لتثبت أركانها فى نفوسهم ، وهذا — وإن كان فى علم السماء قبل أن يقع — لكنه كان على حياة الناس جديداً لم يقع ، وكان لابد أن يلقنوا بيانه مع زمانه وأوانه .

وهكذا لم تكن الرسالة كلمة ساعتها ، وإنما كانت كلمات أعوام ثمانية عشر ، وكانت هذه الكلمات كلها فى علم السماء وفى اللوح المحفوظ ، ولكنها نزلت إلى علم الناس مع زمانها وأوانها .

لهذا نزل القرآن مُنجما ؛ ولقد خال المشركون أن دعوة الرسول إليهم كلمة ، وأن صفحته معهم صفحة ، وفاتهم أن الدعوة معها خطوات ، وأن هذه الخطوات معها جديد على علمهم لا على علم السماء ، وما أحوجهم مع كل جديد إلى مزيد ، ومن أجل هذا الذى

فانهم استنكروا أن ينزل القرآن منجماً وقالوا : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة[1] » وكان جواب السماء عليهم « كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا »[2] أى : جعلناه بعضه فى إثر بعض ، منه ما نزل ابتداء ومنه ما نزل فى عقب واقعة أو سؤال ، ليكون فى تتابعه مع الأحداث وما تثيره من شكوك ما يرد النفوس إلى طمأنينة والأفئدة إلى ثبات .

وإنك لو تتبعت أسباب النزول فى القرآن ومواقع الآيات لتبيّنت أن رسالة الرسول لم تكن جملة واحدة ليكون القرآن جملة واحدة ، بل كانت أحداثاً متلاحقة تقتضى كلمات متلاحقة .

فلقد نزلت آية الظهار فى سَلمة بن صخر ، ونزلت آية اللعان فى شأن هلال بن أمية ، ونزلت آية حد القذف فى رُماة عائشة ، ونزلت آية القبلة بعد الهجرة وبعد أن استقبل المسلمون بيت المقدس بضعة عشر شهراً ، ونزلت آية اتخاذ مقام ابراهيم مصلًّى حين سأل عمر الرسول فى ذلك . كذلك كانت الحال فى الحجاب ، وأسرى بدر ، وغير ذلك كثير ، فكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر وأقل ، وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الإفك جملة ، كما صح نزول عشر آيات من

---

(١) الفرقان : ٣٣

(٢) الفرقان : ٣٢

أول « المؤمنين » جملة ، وصح نزول « غير أولى الضرر »[1] وحدها وهى بعض آية ، وكذا « وإن خفتم عيلة »[2] إلى آخر الآية ، وهى بعض آية ، نزلت بعد نزول أول الآية .

٨ — الوحى ونزول القرآن على سبعة أحرف

وهذا الوحى ألهم الرسول معناه كما ألهم لفظه ، فهو بمعناه ولفظه من صُنع السماء ، والرسول ناطق بلسان السماء ، يُملى على قومه ما أملته عليه السماء ، يصور ما تَصوّر فى وعيه ، وينطق بما أنطقته السماء ، تُفيض عليه السماء فإذا هو قد خلص لهذا الفيض بكلياته ، وإذا هو إشعاع لهذا الفيض يُصدر عنه ويُشكِّل حَرْسه ، فإذا ما انفصل عنه هذا الفيض عاد يُصدر عن نفسه يَطُوع له نُطقه .

ولسان الرسول عربى ، ولهذا جرى القرآن على لسانه عربيًا ، وإذا كان القرآن لسان السماء جرى على لسان الرسول مُبيناً إلى جريانه عربيًا ، يمثِّل أعلى ما ينتظمه اللسان العربى من لغات ، وأحوى ما يجمع من لهجات ، وكانت لغة مضر أعلى ما يجرى على

---

(١) النساء : ٩٤ (٢) التوبة : ٢٩

لسان قريش وأحواه ، فنزل بها القرآن ، وفى هذا يقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر . وكانت لغة مضر هذه تنتظم لغات سبعا لقبائل سبع ، هم : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش .

ولقد مثل القرآن هذه اللغات السبع كلها مفرقة فيه لكل لغة منه نصيب . وهو أولى الأقوال بتفسير الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » .

٩ — اسم كتاب الله

ولقد سمى الله ما أنزله على رسوله : قرآنا ، وكتاباً ، وكلاماً وفرقاناً ، وذكراً ، وقولا .

وكان أكثر هذه الأسماء دوراناً هو لفظ القرآن ، فقد جاء فى نحو من سبعين آية ، وكان فى كلها صريحاً فى اسميته ومدلوله الخاص . من أجل ذلك كتبت لهذا اللفظ الغلبة على غيره ، وكان هذا الاسم الغالب لكتاب الله الذى جاء به محمد وحفظه عنه المسلمون . ويؤثر عن الشافعى أنه قال : القرآن اسم على غير مشتق خاص بكلام الله فهو غير مهموز ، لم يؤخذ من قراءة ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل : التوراة والإنجيل .

ويقول الزجاج : إن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن الصحيح قبلها .

والقائلون بالهمز مختلفون ، وأوجه ما فى خلافهم رأيان :

أولهما : أنه مصدر لقرأت ، مثل الرجحان والغفران ، سمى به الكتاب المقروء ، من باب تسمية المفعول بالمصدر .

والرأى الثانى : أنّه وصف على فعلان ، مشتق من القرء ، بمعنى الجمع .

وأما تسميته بالمصحف فكانت تسمية متأخرة جاءت بعد جمع القرآن وكتابته ، وكانت من وضع الناس . فإنهم يحكون أن عثمان حين كتب المصحف التمس له اسما فانتهى الناس إلى هذا الاسم . غير أن هذا يكاد يكون مردوداً ، فلقد سبق أن علمت أن ثمة مصاحف كانت موجودة قبل جمع عثمان ، هى مصحف على ، ومصحف أبى ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس .

والمصحف : هو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين .

ويقال فيه : مصحف ومصحف ، بضم الميم وكسرها مع فتح الحاء ، والضمة هى الأصل ، والكسرة لاستثقال الضمة ، فمن ضم جاء به على أصله ، ومن كسر فلاستثقال الضمة .

١٠ — جمع القرآن

ولقد مات رسول الله والقرآن كله مكتوب على العُسُب — جريد النخل — واللخاف — صفائح الحجارة — والرقاع والأديم والأكتاف — عِظام الأكتاف — والأقتاب — مايوضع على ظهور الإبل — كما كان محفوظاً فى صدور الرجال يحفظه حَفظة من المسلمين .

وقبل أن يَقبض الله رسولَه إليه عارض الرسولُ ما أنزله عليه ربُّه بُسوره وآياته على ما حفظه عنه حَفظة المسلمين ، فكان ما فى صُدور الحفظة صورةً مما كان فى صدر الرسول .

وكان لابد لهذا المكتوب على الرقاع وغيرها من أن يُعارض على المحفوظ فى الصدور ليخرج من بينهما كتاب الله فى صورة مقروءة كى يفيد منه الناس جميعا على تعاقب الأزمان ، فما تُغنى الرقاع ، ثم هى عُرضة بِلًى وتشتُّت ؛ ومايغنى الحفظة وهم إلى فناء والناقلون عنهم ليس لهم ميزة المعاصرة .

ويُحرِّك الله المسلمين لهذه الحسنة حين استحَر القَتل يوم اليمامة بقُراء القرآن ، فيخفّ عمر بن الخطاب إلى أبى بكر ، وكان عندها خليفة ، وكان الذى استخف عمر إلى أبى بكر فزعه من

أن يتخطَّف الموت القراء فى مواطن أخرى ، كما تخطفهم فى ذاك الموطن — أعنى اليمامة — فيضيع على المسلمين جمَّاع دِينهم ، ويعزّ عليهم كتابهم .

وحين جلس عمر إلى أبى بكر أخذ يُناقشه فيما أتى إليه من جمع القرآن ، بعد أن بسط السبب الحافز ؛ وتلبث أبو بكر يراجع نفسه ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت ، وكان من كتاّب الوحى ، كما مرّ بك ، وحضر زيد مجلس أبى بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه ، فإذا هو معهما فى الرأى ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حُسن الاستجابة يتجه إليه يقول : إنك شاب عاقل لا نَتَّهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فَتتبَّع القرآن اجمعه .

ومضى زيد يتتبع القرآن يَجمعه ويكتبه ، وكان زيد حافظا ، فيسّر عليه حِفظُه عبئَه شيئا ، ولكنه كان إلى هذا لا يقنع فى إثبات الآية يُختلف فيها إلا بشهادة .

واجتمعت هذه الصحف فى بيت أبى بكر حياته ، ثم فى بيت عمر حياتَه .

١١ — مصحف عثمان

وكما حركت محنة اليمامة عمر إلى حسنة . حَركت محنة أخرى — بعد مقتل عمر — عثمان . إلى حسنة ، فقد قدم حذيفة بن اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان على عثمان فَزعاً من اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن ، يقول لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا .

وكما استجاب أبو بكر إلى عمر استجاب عثمان إلى حذيفة ، فأرسل عثمان يطلب الصُّحف من عند حَفصة بنت عمر وزوج النبي . وأرسلت حفصة بالصُّحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه زيدَ ابن ثابت ، وعبدَ الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وكلهم من كتاب الوحى ، وأمرهم بنسخ هذه الصحف . فكتبوا منها سبع مصاحف . ثم رد عثمان الصُّحف[1] إلى حفصة فلم تزل عندها حتى أرسل مروان بن الحكم ابن أبى العاصى فأخذها فخرقها[2] ، كما ذكر أبو بكر السجستانى .

ويقول أبو بكر السجستانى فى مكان آخر بسند متصل عن سالم

---

(١) ويقال إنه نسخ من المصحف أربعه مصاحف أرسلها إلى البصرة والكوفة والشام واحتفظ بالرابع فى المدينة .

(٢) المصاحف للسجستانى (ص ١٠) .

ابن عبد الله : إن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التى كتب فيها القرآن ، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها . قال سالم : فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف . فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر ، فأمر بها مروان فشُققت . فقال مروان : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحُفظ بالمصحف فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب . أو يقول : إنه قد كان شىء منها لم يكتب[1] .

ولا ندرى إلى أى حد كان توفيق مروان فيما فعل ، ولكنه ، وهو الرجل الذى كان معاصرا لما وقع ، كان عليه أن يطمئن إلى أن الأمر قد تم على أحسن ما يكون دقة وضبطاً ؛ وما نظنه غاب عنه كيف احتاط عثمان لذلك ، وما نظنه إلا كان شاهد عثمان وهو يخطب الناس يناشدهم أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبى قريباً ، إذ لم يكن مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة . وما نظن الناس إلا قد وفوا لعثمان وجاءه كل رجل بما كان عنده ، فلقد كان الرجل يأتيه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولقد جمع من ذلك عثمان الشىء الكثير . وما وقف عثمان عند

---

(١) المصاحف (٢٤ — ٢٥).

هذه بل لقد دعاهم رجلا رجلا فينا شده : لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول الرجل : نعم . حتى إذا فرغ من ذلك قال : من أكتب الناس ؟ فقال الناس : كاتب رسول الله زيد بن ثابت . قال عثمان : فأى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص ـ وكان سعيد أشبههم لهجة برسول الله ـ قال عثمان : فَلْيُمل سعيد وليكتب زيد .

هذا كله فعله عثمان ، وفعل إلى جانبه الاستئناس بالصحف التى تم جمعها فى عهد أبى بكر وشارك فيها عمر ، والتى كانت عند حفصة تلك الصحف التى مثّلت المصحف الأول المعتمد .

من أجل هذا لم يختلف زيد وسعيد فى شىء ، ووجدا ما اجتمع لهما من قبل على يد أبى بكر وعمر هو هو الذى جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه .

ويحكى المؤرخون أن زيداً وسعيداً لم يختلفا إلا فى حرف واحد فى سورة البقرة ، فقال أحدهما « التابوت » وقال الآخر « التابوه » واختيرت قراءة زيد بن ثابت ، لأنه كان كاتب الوحى .

وأرسل عثمان ستّا من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس مصحفاً بالمدينة ، وأمر عثمان فحُرق ما كان مُخالفا لمصحفه .

وقد مر بك أن على بن أبى طالب كان له مُصحف باسمه ، أعنى كان إليه جمعه ، وأنه بعد موت النبى كان قد أقسم ألا يرتدى برداء إلا لجُمعة حتى يجمع القرآن فى مصحف ، ففعل .

وينقل أبو بكر السِّجستانى[1] بسَند مُتصل عن أشعث عن ابن سيرين ، أنه حين تخلّف عن بيعة أبى بكر أرسل إليه أبو بكر يقول له : أكرِهْتَ إمارتى يا أبا الحسن ؟ فقال على : لا والله ، إنى أقسمت ألا أرتدى برداء إلا لجُمعة . فبايعه ثم رجع .

ثم يقول أبو بكر : لم يذكر « المصحف » أحد إلا أشعث ، وهو لين الحديث . وإنما : حتى أجمع القرآن ، يعنى أتمّ حِفظه .

غير أن ابن النديم — فيما نقلت إليك عنه قبلُ — يذكر أنه رأى عند أبى يَعلى حمزة الحسنى مُصحفاً سقطت منه أوراق بخط على بن أبى طالب يتوارثه بنو الحسن، ثم أورد ترتيب السور فيه ، وقد نقلناها لك فيما سبق .

ولقد كان إلى مُصحف على مصاحف أخرى مرت بك ، هى مصحف أبى ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس ، وكان ثمة مصاحف أخرى هى : مصحف موسى الأشعرى ، ومصحف للمقداد بن الأسود ، ومصحف لسالم مولى أبى حذيفة .

---

(١) المصاحف (ص ١٠)

ولقد كانت هذه المصاحف موزعة فى الأمصار فكان أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود ، وأهل البصرة على مصحف أبى موسى الأشعرى ، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود ، وأهل الشام على مصحف أبى بن كعب .

وكان ثمة خلاف بين هذه المصاحف ، وهذا الخلاف هو الذى شهد به حُذيفة حين كان مع الجيش فى فتح أذربيجان . وهذا الخلاف هو الذى فَزع من أجله عثمان فنهض يجمع أصول القرآن ويجمع إلى هذه الأصول الحفظة الموثوق بهم .

فنحن الآن بين مراحل ثلاث مر بها تدوين المصحف :

أولى هذه المراحل تلك التى كانت فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان من حوله كتّابه يكتبون ما يملى عليهم ، وكان الرسول حريصاً على ألا يكتب عنه غير القرآن حتى لا يلتبس به شىء آخر . ويروون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فَلْيمحه .

ولم يترك رسول الله دنياه إلى آخرته إلا بعد أن عارض ما فى صدره على ما فى صدور الحفظة الذين كانوا كثرة ، وحسبك ما يقال عن كثرتهم أنه فى غزوة بئر معونة قتل منهم — أى من القراء — سبعون . ثم حسبك عن كثرتهم أنه كانت منهم سيدة ،

هى أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن ، وقد أمرها رسول الله أن تؤمّ أهل دارها[1].

ثم حسبك دليلا على أن القرآن كتب فى حياة الرسول ، وأنه كتب فى صحة وضبط ، ما رواه البراء مع نزول قوله تعالى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين »[2] قال الرسول : ادع لى زيداً وليجىء باللوح والدواة والكتف ثم قال : أكتب « لايستوى » أى إن الرسول كان يملى على كاتبه لساعته .

ثم لعلك تذكر فى إسلام عمر أن رجلا من قريش قال له : أختك قد صبأت — أى خرجت عن دينك — فرجع إلى أخته ودخل عليها بيتها و لَطمها لطمة شَجّ بها وَجهها . فلما سكت عنه الغضب نظر فإذا صحيفة فى ناحية البيت فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . سَبّح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم[3] » واطلع على صحيفة أخرى فوجد فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . طه ما أنزلنا عليك القرآن[4] » فأسلم بعد ماوجد نفسه بين يدى كلام معجز ليس من قول بشر .

---

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد .

(٢) النساء : ٩٤

(٣) الحديد : ١ (٤) طه : ١

فهذه وتلك تدلانك على أن الكتاب كانوا يكتبون بإملاء الرسول ، وأن هذا المكتوب كان يتناقله الناس .

والثانية من تلك المراحل ما كان من عمر مع أبى بكر حين استحر القتل بالقراء فى اليمامة ، وما انتهى إليه الرأى بين أبى بكر وعمر فى أن يَكِلا إلى زيد بن ثابت جمع المصحف لتكون معارضة بين ما هو مكتوب فى الألواح وبين ما هو محفوظ فى الصدور ، قبل أن تأتى المواقع على حفظة القرآن ، فما من شك فى أن الاثنين يكمل أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يبلغ الكمال والدقة والضبط .

وما يمنع من هذا الذى فكر فيه عمر أن يكون هناك جمع سابق على يد نفر من الصحابة ، مثل ما فعل على ومثل ما فعل ابن مسعود ، ومثل ما فعل ابن عباس ، ومثل مافعل غيرهم .

وما كان هذا يغيب عن عمر ، ولكن كان ثمة فرق بين ما فكر فيه عمر وما سبق بعض الصحابة به ، فلقد كان الرأى عند عمر أن يبادر فى ظل وجود القراء إلى إيجاد مصحف رسمى يصدر بتكليف من الخليفة ، والخليفة أقوى على حشد الجهود العظيمة لهذا العمل العظيم .

ولقد أحس زيد بثقل المهمة التى أرادها عمر وأرادها معه أبو بكر ، فأبو بكر وعمر لم يريدا عملاً فردياً يحمل عبئه فرد واحد ، وإنما أرادا عملاً جماعيا تحمل عبئه الخلافة وباسم الخلافة يصدر .

من أجل ذلك قال زيد : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىّ مما كان أمرونى به من جمع القرآن .

ومن أجل ذلك مضى زيد يتحرى ، لم يكتف بما فى صدره وما بين يديه ، بل لقد تلمّس آية يفقدها فوجدها عند رجل من الأنصار يدوّنها ، وهى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه[1] » .

ومن أجل ذلك قال أبو بكر لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت : اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه .

ومن أجل ذلك لم يقعد زيد عن السعى ليجد آخر المطاف آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت .

إذن فلقد كان مصحف أبى بكر وعمر أولَ مُصحف رسمىّ جَمعه زيد بن ثابت لهما فى ظل هذا التحرّى الدقيق ، الذى كان أبو بكر وعمر من ورائه . غير أن هذا المصحف الرسمىّ لم يأخذ طريقه الرسمى إلى الأمصار ، ولعل مقتل عمر هو الذى أخّر ذلك .

والمرحلة الثالثة والأخيرة هى المرحلة التى تمّت على يد عثمان : وكانت تتمه للمرحلة الرسمية التى بدأت فى عهد أبى بكر وشاركه فيها عمر .

---

(١) الأحزاب : ٢٣

فلقد وقع الذى كان يخشاه عمر ، والذى فكر من أجله فى هذا الجمع الرسمى ، وعجل به القتل عن أن يمضى فيه إلى آخره .

فلقد مر بك كيف استقل كل مصر بمصحف ، وكانت مصاحف فردية لم يجتمع لها ما اجتمع لمصحف أبى بكر الذى انتهى إلى حفصة ، ثم انتهى إلى عثمان ، من جهد جماعى مستوعب ، ولقد سعى « علىّ » جهده ، وسعى « أبى » جهده ، وسعى « ابن عباس » جهده . ولكن هذه الجهود لو تلاقت كما تلاقت حياة أبى بكر وعمر لخضعت لتعديل كثير ، ودليلنا على ذلك أنه لما خرج إلى الأمصار مصحف عثمان دان الناس لتحريره قبل أن يدينوا لسلطان الخليفة ، وما يستطيع أحد أن يظن بالمسلمين اللين والضعف عن أن يقفوا لأقوى الخلفاء يلزموه رأيهم إن كانوا يعرفون أنه الحق ، ولكن انصياع المسلمين فى الأمصار كلها لمصحف عثمان ، وما كان عثمان بالعنيف ، يدلك على أن المصحف العثمانى خرج من إجماع آطمأنت القلوب إليه .

ويروى أبو بكر السجستانى بسند متصل عن « على » فى المصاحف وحرق عثمان لها : « لو لم يصنعه عثمان لصنعته[1] » .

ولقد كان « على » صاحب مصحف اختفى بظهور مصحف عثمان . ولكن هذا لم يمنعه من نصرة الحق الذى جاهد من أجله حياته كلها .

(١) المصاحف (ص : ١٢)

والذى قَبـله « على » قَبـله « ابن مسعود » ، ولـكن بعد لأى(١) ، وقبله بعد هذين كثيرون من الصحابة .

يروى أبو بكر السجستانى بسند متصل عن مصعب بن سعد قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم ينكر ذلك منهم أحد .

وما أجلّ هذه التى فعلها عثمان ، وحسبه عنها ما يرويه أبوبكر السجستانى بسند متصل عن عبد الرحمن بن مهدى يقول : خَصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبى بكر ولا لعمر : صَبره نفسه حتى قُتل مظلوما ، وجمعه الناس على المصحف .

وحسبك أن تعلم أن الحال فى اختلاف الناس لم تـكن أيام عثمان فى الأمصار دون المدينة ، بل شملت المدينة أيضاً ، فلقد كان المعلمون فيها لـكل مُعلم قراءته ، فجعل الغلمان يَلتقون فيختلفون . فـكان هذا لعثمان ، إلى ما بلغه من حُذيفة ، مما أفزعه وجعله يقوم بين الناس خطيبا ويقول : أنتم عندى مُختلفون فيه فتلحنون فمن نأى عنى من الأمصار أشد فيه اختلافا وأشد لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد وا كتبوا للناس إماماً .

من أجل هذا سُمى مصحف عثمان : الإمام .

---

(١) المصاحف (ص : ١٨) .

وقد أرسل عثمان من هذا المصحف نسخاً للأمصار — كما مر بك — وأمر بأن يحرق ما عداها .

ويحكى ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار[1] وهو يصف مسجد دمشق : « وإلى جانبه الأيسر المصحف العثمانى بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه » .

ومعنى هذا أن هذا المصحف كان بدمشق حياة العمرى ، أى إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، فلقد كانت وفاة العمرى سنة ٧٤٩ هـ .

ويرجح المتصلون بالتراث العربى أن هذا المصحف هو الذى كان فى دار الكتب بمدينة ليننجراد ثم انتقل منها إلى انجلترا ولا يزال بها إلى اليوم .

ويروى السفاقسى فى كتابه « غيث النفع »[2] « ورأيت فيه — يعنى مصحف عثمان — أثر الدم وهو بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة » .

ولقد كان فى دار الكتب العلوية فى النجف مصحف بالخط الكوفى مكتوب فى آخره : كتبه على بن أبى طالب فى سنة أربعين من الهجرة ، وهى السنة التى توفى فيها على .

---

(١) المسالك (١ : ١٩٥ طبعة دار الكتب المصرية)

(٢) غيث النفع فى القراءات السبع (ص ٢٣٠)

١٢ — كتب المصاحف

ولقد كتب نفر من السلف كتبا عرضوا فيها للمصاحف القديمة التى سبقت مصحف عثمان ، والتى جاء مصحف عثمان ملغيا لها ، نذكر منها :

١ — اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق ، لابن عامر ، المتوفى سنة ١١٨ هـ .

٢ — اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة ، عن الكسائى ، المتوفى سنة ١٨٩ هـ .

٣ — اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام فى المصاحف ، للفراء ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

٤ — اختلاف المصاحف لخلف بن هشام ، المتوفى سنة٢٢٩ هـ .

٥ — اختلاف المصاحف وجامع القراءات ، للمدائنى ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

٦ — اختلاف المصاحف لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى ، المتوفى سنة ٢٤٨ هـ .

٧ — المصاحف والهجاء لمحمد بن عيسى الأصبهانى ، المتوفى سنة ٢٥٣ هـ .

٨ — المصاحف لأبى عبد الله بن أبى داود السجستانى ، المتوفى سنة ٣١٦ هـ .

٩ — المصاحف لابن الأنبارى ، المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

١٠ — المصاحف لابن اشته الأصبهانى ، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

١١ — غريب المصاحف للوراق .

وترى من هذا العرض لهذه الكتب ومؤلفيها أن المصحف الإمام لم يلغ المصاحف التى جاء ليلغيها إلغاء تاماً ، وأن هذه المصاحف بخلافها على المصحف الإمام ظلت حية ، إن لم تكن كتابةً فحفظا ، وإن كنا نرجح الأولى . وأول كتاب فى هذا كان لابن عامر — كما ترى — وابن عامر كانت وفاته سنة ١١٨هـ ، أى بعد مقتل عثمان بما يقرب من ثلاث وثمانين سنة ، فلقد كانت وفاة عثمان فى الخامسة والثلاثين من الهجرة .

ولقد انتهى إلينا من هذه الكتب كلها كتاب المصاحف لأبى بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى . وقد نقلت منه نصوصا مرت بك وأشرت إلى مواضعها من النسخة المطبوعة من هذا الكتاب .

ويكاد يكون كتاب أبى بكر السجستانى جامعا لكلام من سبقوه ، لتأخره فى الزمن عنهم ، وما أظن من بعده أضاف كثيراً . أعنى بهذا أن كتاب أبى بكر السجستانى يكاد يمثل لنا هذا الخلاف كله .

وإنى لأعد إقدام هؤلاء النفر من السلف على مثل هذا التأليف إحياءً لخلاف حاول الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان — أو قل الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى — أن يضعوا له نهاية، بالمحاولة الأولى التى تمت على يد أبى بكر وعمر، ثم بالمحاولة الثانية التى تمت على يد عثمان وأقره عليها على، وشارك فيها كثير من الصحابة، ومنهم من كان صاحب مصحف مثل « أبى » .

وعثمان لم يقدم على ما فعل إلا حين فزّعه الخلاف، ولم يُمض ما أقدم عليه إلا بعد أن اطمأنت نفسه إلى ما انتهى إليه، ولم يطمئن إلى اطمئنانه إلا بعد أن آزرته عليه الكثرة. وبعد هذا كله وقف عثمان موقفه الحازم القاطع فألزم الأمصار بالمصحف الإمام، ثم حرق ما عداه. ومعنى هذا أنه لا رجعة إلى هذا الخلاف، ولا سبيل إلى الرجعة إليه، إذ لو صح أن ثمة شك قد انتهى إليه عثمان لما كان منه هذا القرار الحازم القاطع.

ولعلك تذكر ما كان من مروان من إحراقه مصحف حفصة الذى كان مرجعاً من مراجع المصحف الإمام. ولقد كان سنده، غير أنه أراد من هذا ألا يكون ثمة رجعة إلى الوراء تثير هذا الخلاف فى كتاب قال فيه تعالى: « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1].

(١) الحجر: ١٢ .

وبعد ما يقرُب من قَرن إلا قليلا يطالعنا ابن عامر بمؤلفه فى اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق، أو قل بعد أن اختفى جيل القراء الأول والثانى والثالث من الميدان ، وبعد أن نفض أصحاب المصحف الإمام أيديهم من أدلتهم واطرحوها وأحرقوها ، بعد هذا كله تثار قضية لا تكافؤ فيها ، أدلتها الخلافية قطع فيها بالرأى ، واستبعد شىء لا يستقيم وأقيم مقامه شىء مُستقيم .

وأنا من أجل هذا من القائلين — لا خوفا — بأن إثارة مثل هذا ليست نوعاً من الدراسة ، فتلك دراسة بتراء لا تملك أسلوبها العلمى الصحيح . ولقد كنا نرحب بها لو كانت شيئاً جديداً لم تعرفه البيئة حين حكمت فى أمره ، بل لقد كان شيئاً معهوداً للبيئة تعرفه وتعرف أكثر منه ، ولقد حكمت فيه وفرغت منه ، فإرادته بعد هذا ليكون شيئاً يدرس نوع من الكيد ، ولو كنت أملك لعفيت آثاره كما عفى عثمان آثاراً مثله ، ولن أكون معها متجنياً أو متعسفاً أو خائفا ، بل أكون مع الحزم الذى اتصف به عثمان وناصره عليه « على » واجتمع معه فى الرأى عليه اثنا عشر صحابيا ، جمعهم عثمان لهذا العمل الجليل .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان أبى بكر السجستانى فى ختام عرضه لمصحف أبى بن كعب حين يقول : لا نرى أن يقرأ القرآن

إلا بمصحف عثمان الذى اجتمع عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه فى الصلاة أمرته بالإعادة .

هذا على الرغم من أن أبا بكر هذا تكأة المستشرقين ، لأنه واحد من هؤلاء الذين أرادوا أن يوقظوا الفتنة بأيديهم وألسنتهم . والمستشرقون من أجل هذا لا يقبلون ما يجرّح به أبو بكر . فلقد كذبه أبوه فى أكثر من حديث . وقال عنه الدار قطنى : إنه كثير الخطأ فى الكلام على الحديث ، غير أن هذا لم يرض المستشرقين ، كما قال « جفرى » فى مقدمته لكتاب « المصاحف لأبى بكر السجستانى » ، فلقد قال جفرى : وهذه تهمة لم يرض بها المستشرقون لأنها لم تقم على حُجة من الأحاديث التى رويت عنه ، ولأنهم اختبروا أحاديثه على قاعدة البحث الجديدة فوجدوها صحيحة وصادقة .

يا سبحان الله ! فلقد أصبح المستشرقون أفقه بعلم الحديث من واضعيه ، وأصبحت لهم طرق فى الرواية غابت عن علماء المحدثين ، منها أنهم لا يأبهون بتكذيب الأب لابنه ما دام الابن يجمع لهم ما شذ ولم يرضه أهل النقل .

وما أحب أن أخوض فى عرض المصاحف المختلفة التى ساق أبو بكر السجستانى منها نماذج مختلفة ، فذلك شىء قد مات — كما قلت لك — والنابش عنه لا يريد علما ولا حقا ، وإنما يريد

كيداً وشقاقا ، غير أنى لا أحب أن أسكت عن أشياء ثلاثة أثارتها كتب المصاحف دون أن أعرضها وأذكر الرأى فيها :

أولها : ما يعزى إلى عثمان بن عفان عن قتادة ويحيى بن يعمر من أنه رضى الله عنه لما رُفع إليه المصحف قال : إن فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها .

وهذا الحديث لا يجب أن يمر دون أن يضم إليه حديث ثانٍ يعزى إلى عثمان أيضا عن عكرمة الطائى يقول : لما أُتى عثمان رضى الله عنه بالمصحف رأى فيه شيئا من لحن فقال : لو كان المُمْلى من هذيل والكاتب من ثقيف لم يُوجد فيه هذا .

ولقد مر بك أن عثمان اختار حين كتب مصحفه رجلين ، هما : زيد بن ثابت ، وكان أكتب الناس ، وسعيد بن العاصى ، وكان أفصح الناس وأشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم . وما كانت تغيب عن عثمان ، ولا عَمّن كانوا مع عثمان ، يوم شمَّروا لكتابة المصاحف ، هذه الاختلافات فى الرسم الإملائى التى ظهرت بعد كتابه المصحف وتمنى عثمان لو لم تكن حين قال : لو كان المملى من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا .

ثم كيف تَرد هذه التى وردت فى الحديث الأول عن عثمان ، وهو الذى كان من وراء من يكتبان ، يراجع ما يكتبانه حرفاً حرفاً

وكلمة كلمة ويصلح ما فاتهما . وما نظن عثمان و نى فى هذا العبء ولا فتر ، وهو يعلم جِده وخطره ، وهو يعلم المتحفزين به من وراء ذلك على عملٍ حَمل عبئه على الرغم منهم .

اللهم إن ثمة شيئا لا ندفعه ، وهو ما جاء فى المصحف الإمام من رسم قديم كان مظنة اللبس ، ورأى عثمان أن ألسنة العرب تُقيمه على وجهه وإن بَدَا على غير وجهه ، فلم يعرض له . ولعل هذا هو تفسير ما جاء على لسان عثمان فى حديثه ، إن صح أنه له ، يؤيدنا على ذلك حديثه الثانى الذى عقّبت به .

ويفسر هذا قولُ ابن اشته فى كتابه « المصاحف » : جميع ما كتب خطأ يجب أن يقرأ على صحة لغته لا على رسمه ، وذلك فى نحو « لا أوضعوا » و « لا أذبحنه » بزيادة ألف فى وسط الكلمتين ، إذ لو قرىء بظاهر الخط لكان لحنا شنيعا ، يقلب معنى الكلام ويُخل بنظامه .

ويؤيده وضوحا أبو بكر السجستانى من قبل ابن اشتة حيث يقول فى كتابه المصاحف(١) : هذا عندى يعنى : بلغتها — يريد معنى قوله بألسنتها — وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز فى كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه .

---

(١) المصاحف (٣٢) .

ويؤيد هذا ما روى عن عمر بن الخطاب : « إنا لنرغب عن كثير من لحن أبي . يعني : لغة أبي[1] » .

وثانيها : ما يعزى إلى عائشة ، يرويه هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن : « إن هذان لساحران »[2] ، وعن قوله تعالى « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة »[3] ، وعن قوله تعالى : « والذين هادوا والصابئون »[4] ، فقالت : يابن أختي هذا عمل الكتاب أخطئوا في الكتاب[5] .

ومثل هذا الذي عُزي لعائشةَ يُعزى لأبان بن عثمان يرويه الزبير يقول : قلت لأبان بن عثمان : كيف صارت « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب ؟ قال : من قبل الكُتّاب ، كَتب ما قبلها ثم قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب « المقيمين الصلاة » فكتب ماقيل له[6].

وينضم إلى هذا ما يُعزى إلى سَعيد بن جبير أنه قال : في القرآن أربعة أحرف لحن : « والصابئون » ، « والمقيمين » ،

---

(١) المصاحف لأبي بكر السجستاني: ٣٢ (٢) طه : ٦٣
(٣) النساء : ١٦٢ (٤) المائدة : ٦٩
(٥) المصاحف : ٣٤ . (٦) المصاحف : ٣٣ ــ ٣٤ .

« فأصدق وأكن من الصالحين »(١) ، « إن هذان لساحران » .

وقبل أن أقول كلمتى أحب أن تأنس معى بقول عالم جليل من علماء التفسير واللغة ، وما أبغى أن أضم إليه غيره لأثقل عليك .

يقول الزمخشرى محمود بن عمر فى كتابه « الكشاف »(٢) : « والصابئون » — المائدة الآية ٦٩ — رفع على الابتداء ، والنية به التأخير عما فى حيّز إن من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك . وأنشد سيبويه(٣) شاهدا له :

وإلاّ فاعلموا أنا وأنتم بُغاة ما بقينا فى شقاقِ

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك . فإن قلت : هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها ؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر . لا تقول : إن زيدا وعمرو منطلقان . فإن قلت : لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إن زيدا منطلق وعمرو ؟ قلت : لأنى إذا رفعته عطفا على محل إن واسمها ، والعامل فى محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل فى الخبر ، لأن الابتداء ينتظم الجزأين فى عملهما كما تنتظمهما « إن » فى عملها .

---

(١) المنافقون : ١ (٢) الجزء الأول ٦٦٠ — ٦٦١ طبعة الاستقامة
(٣) الكتاب ١/٢٩٠

فلو رفعت « الصابئون » والمنوىّ به التأخير بالابتداء ، وقد رفعت الخبر بإن ، لأعملت فيهما رافعين مختلفين . فإن قلت : فقوله « والصابئون » معطوف لابد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله « إن الذين آمنوا » ولا محل لها ، كما لا محل للتى عطفت عليها . فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدّهم غيّا ، وما سُمّوا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها ، أى خرجوا . كما أن الشاعر قدّم قوله « وأنتم » تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل فى الوصف بالبُغاة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو « بغاة » لئلا يُدخل قومه فى البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً . فإن قلت : فلو قيل : والصابئين وإياكم ، لكان التقديم حاصلا ؟ قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم فى شىء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال : مقدم ومؤخر ، للمُزال لا للقارّ فى مكانه ، ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض فى الكلام .

وقال الزمخشرى[1]: « والمقيمين » (النساء : ١٦٢) نصب على المدح لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع . وقد كسّره سيبويه

---

(١) الكشاف (١ : ٥٩٠) .

على أمثلة وشواهد ، ولا يُلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً فى خط المُصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان ، ونُنبِّى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كانوا أبعدَ هِمة فى الغيرة على الإسلام وذَبّ المطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسُدها مَن بعدهم ، وخرقاً يرفوه من لحق بهم .

وقيل : هو عطف على « بما أنزل إليك » أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة ، وهم الأنبياء . وفى مصحف عبد الله « والمقيمون » بالواو ، وهى قراءة مالك بن دينار ، والجحدرى ، وعيسى الثقفى .

وقال الزمخشرى[1]: وأكن « المنافقون ١٠ » عطفا على محل « فأصدق » كأنه قيل : إن أخرتنى أصدق وأكن . ومن قرأ « وأكون » على النصب ، فعلى اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير « وأكون » على : وأنا أكون ، عِدةً منه بالصلاح » .

وقال الزمخشرى[2]: إن هذان لساحران « طه : ٦٣ » : قرأ أبو عمر : إن هذين لساحران ، على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : إن هذا لساحران ، على قولك : إنْ زيد

---

(١) الكشاف (٤ : ٥٤٤) . (٢) الكشاف (٣ : ٧٢٠) .

لمنطلق . واللام هى الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة . وقرأ أُبى : إنْ ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران ، بفتح أن وبغير لام ، بدل من «النجوى» . وقيل فى القراءة المشهورة — وهو يعنى المصحف الإمام — إن هذان لساحران ، هى لغة بلحارث بن كعب ، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التى آخرها ألف ، كعصا وسعدى ، فلم يقلبوها فى الجر والنصب . وقال بعضهم : « إن » بمعنى : نعم ، و « ساحران » خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلة على الجملة ، تقديره : لهما ساحران . وقد أعجب به أبو إسحاق .

انتهى كلام الزمخشرى وبودى أن أشير قبل أن أمضى فى حديثى إلى أن فى كلامه دليلا جديداً يؤيدنى فيما اخترت من قبل عن القراءات السبع فى القرآن ، وأنها لغات العرب جاءت مبثوثة فى القرآن ، وبها كلها يتجه الكلام .

أما عن حديثى الذى أحب أن أمضى فيه :

١ — فأما ماجاء منسوبا إلى عثمان فقد قدّمت دفعى له وتأويله ، ويحضرنى هنا بعد عرض آراء الزمخشرى أن اللحن الذى جاء على لسان عثمان مُرادٌ به : توجيه الكلام توجيها ليس على ظاهره ، وأن المراد بتقويم الألسنة أو اللغات له : بيان الوجه المراد معه . هذا إن صح ما نُسب إلى عثمان .

٢ — وأما ما جاء منسوبا إلى عائشة ، فما أظن عائشة تسكت على خطأ الكتّاب فى كتاب الله وترضى به يشيع ويخرج عن المدينة إلى الأمصار ، ولم تكن بعيدةً عن عثمان ولا عن الصحابة الكاتبين ، وما أظنها كانت أقل منهم حرصاً على سلامة كتاب الله . وحسبك ما قدمه الزمخشرى فى هذه .

٣ — وأما عن تلك التى ينسبونها لأبان بن عثمان ، فلا أدرى كيف جاءت على لسانه مع العِلم بأنه ممن لم يشهدوا عصر التّدوين ، ولا كان حاضر ذلك ، فلقد كانت وفاته سنة ١٠٥ هـ ، وعثمان مات سنة ٣٥ هـ .

وبعد . فهذا الذى نسب إلى أبان استنباط لا رواية مأثورة . وهذا الاستنباط الذى استنبطه أبان لا يصح إلا عن مشاهدة أو سماع عن مشاهدة . وكلاهما لم يتوفّر لهذا الحكم .

وثالث الأشياء التى أردت ألا أسكت عنه : هو ما يعزوه أصحاب التواليف فى المصاحف إلى الحجاج بن يوسف ، وأنه غيّر فى مصحف عثمان أحد عشر حرفا ، وقد رواها أبو بكر السجستانى فى كتابه المصاحف مرتين .

الأولى يقول فيها : حدثنا عبد الله : حدثنا أبو حاتم السجستانى : حدثنا عباد بن صهيب ، عن عوف بن أبى جبلة : أن الحجاج

ابن يوسف غير فى مصحف عثمان أحد عشر حرفا[1] .

والثانية يقول فيها : قال أبو بكر — يعنى نفسه — كان فى كتاب أبى : حدثنا رجل . فسألت أبى : من هو ؟ فقال : حدثنا عباد بن صهيب ، عن عوف بن أبى جبلة . أن الحجاج بن يوسف غير فى مصحف عثمان أحد عشر حرفا[2] .

وهذه هى الأحرف كما ذكرها أبو بكر السجستانى :

١ — كانت فى البقرة « لم يتسن » فغيرها « لم يتسنه » « الآية : ٢٥٩ » .

وأحب أن أعقب أن ابن مسعود قرأ « لم يتسن » والأصل فيها « يتسنن » فقلبت لأن الثانية حرف علة ، كما فى : تقضض ، وتقضى . وقرأ حمزة والكسائى بحذف الهاء فى الوصل ، على أنها هاء السكت . وقرأ باقى السبعة بإثبات الهاء فى الوصل والوقف ، على أنها أصلية . وقرأ أبى « لم يسنه » بادغام التاء فى السين .

٢ — وكانت فى سورة المائدة : « شريعة ومنهاجا » فغيره « شرعة ومنهاجا » « الآية : ٤٨ » .

وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

---

(١) المصاحف (ص : ٤٩)

(٢) المصاحف (ص : ١١٧)

٣ — وكانت فى سورة يونس « هو الذى ينشركم » فغيره « هو الذى يسيركم » « الآية : ١٠ » .

وأحب أن أعقب أن « يبشركم » قراءة ابن عامر ويزيد ابن القعقاع . وينشركم ، أى يحييكم .

٤ — وكانت فى سورة يوسف « أنا آتيكم بتأويله » فغيرها « أنا أنبئكم بتأويله » « الآية : ٤٥ » .

وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٥ — وكانت فى سورة المؤمنين « سيقولون لله » فغيرها « سيقولون الله » « الآيتان : ٨٧ و ٨٩ » .

وأحب أن أعقب أن الأولى هى القراءة المشهورة . وقرأ بالثانية أبو عمرو ويعقوب .

٦ و ٧ — وكانت فى سورة الشعراء « من المخرجين » « الآية : ١١٦ » فغيرها « من المرجومين » و « من المرجومين » « الآية : ١٦٧ » فغيرها « من المخرجين » .

وأحب أن أعقب أن هذه وتلك هما القراءتان المشهورتان .

٨ — وكانت فى سورة الزخرف «معايشهم» فغيرها «معيشتهم» « الآية : ٣٢ » .

وأحب أن أعقب أن هذه هى القراءة المشهورة ، ولم يقرأ بالأولى أحد من القراء .

٩ — وكانت فى سورة الذين كفروا « ياسن » فغيرها « آسن » « الآية : ١٥ » .

وأحب أن أعقب أن حمزة قرأ « ياسن » وقفا لا وصلا . وأن « آسن » هى القراءة المشهورة .

١٠ — وكانت فى سورة الحديد « فالذين آمنوا منكم واتقوا » فغيرها « وأنفقوا » « الآية : ٧ » .

وأحب أن أعقب أن القراءة المشهورة « وأنفقوا » ولم يقرأ أحد من القراء « واتقوا » .

١١ — وكانت فى سورة التكوير « وماهو على الغيب بظنين » فغيرها « بضنين » « الآية : ٢٤ » .

وأحب أن أعقب أن مكيا وأبا عمرو وعليا ويعقوب قرءوا « بظنين » أى متهم . وأن الباقين قرءوا « بضنين » أى ببخيل .

هذه هى الأحرف التى يروى أن الحجاج غيرها فى مصحف عثمان .

وأحب أن أزيد الأمر وضوحا ولا أتركه على إبهامه هذا الذى

يثير شكا ويكاد القول فيه على ظاهره يعطى للحجاج أن يغيّر فى كتاب الله :

١ — لقد رأيت كيف روى أبو بكر السجستانى هذا الخبر فى كتابه « المصاحف » فى مكانين بسندين ، هما وإن اتفقا إلا أن ثانيهما رواه أبو بكر فى أسلوب يهون فيه من شأن المُسند إليه الخبر .

٢ — ولقد رأيت من هذا التعقيب الذى عقبنا به على هذه الأحرف . أن ثمانية منها تحتمل قراءات ، وأن ما أثبته الحجاج كان المشهور .

٣ — ولقد رأيت أن ثلاثة منها لم يقرأ بها أحد من القراء ، وهى « شريعه » التى غيرت إلى « شرعة » و « آتيكم » التى غيرت إلى « أنبئكم » و « معيشتهم » التى غيرت إلى « معايشهم » .

وأحبك أن تعرف :

٤ — أن الحجاج كان من حُفاظ القرآن المعدودين .

٥ — وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية فى نقَط المصاحف وشكلها ، بعد أن كانت الجولة الأولى على يد الصحابة ، وكانت جولة الصحابة بداية لم تشمل القرآن كله بل كانت نوعاً من التيسير .

يقول الدانى[1] بسند متصل عن قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا — وهو يعنى الصحابة . ثم يقول فى إثر هذا : هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعُشور .

وفى الجولة الثانية خلاف ، فمن الرواة من يعزوها إلى أبى الأسود الدؤلى بعد أن طلبها منه زياد .

ومنهم من يعزوها إلى يحيى بن يعمر العدوانى ، وكان ذلك عن طلب الحجاج ، ويقول : إن هذا هو الأعرف .

وما نظن الحجاج ، وهو الحافظ للقرآن — كان بعيداً عن يحيى ابن يعمر ، كما لم يكن عثمان بعيداً عن زيد بن ثابت وسعيد .

وإذن نستطيع أن نقول :

١ — إن هذه الأحرف الثلاثة التى لم يقرأ بها أحد لم تكن منقوطة ولا مشكولة فميزها النقط وبينها ، وكانت على ألسنة الناس كما كانت على لسان الحجاج ، بدليل أنها لم ترد فى قراءة ، ولا أدرى كيف قامت هذه دعوى .

٢ — إن الأحرف الثمانية الباقية ، فيها قراءات كما مر بك ،

---

(١) المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمر عثمان بن سعيد الدانى (ص : ٢ ـ ٣) .

والمشهور منها ما يعزى إلى الحجاج أنه أثبته . ولكن من أنى لنا أن هذا الذى يقال إن الحجاج أثبته لم يكن ، وإن رسم مصحف عثمان كان يحتمله ، وإن الحجاج لم يفعل غير أن بيّنه وميزه .

يحدونى إلى هذا ما روى من أن عثمان حين كان يعرض عليه المصحف غير «لم يتسن» إلى «لم يتسنه» . إذن فالذى يعزى إلى الحجاج أنه فعله عزى إلى عثمان أنه فعله من قبله ، ولا يمنع أن يكون هذا كله — أعنى الأحرف الثمانية — كانت مقروء مصحف عثمان ، وأن الحجاج حين نقط وشكل ميز الرسم وبينه ، يستوحى فى ذلك من مقروئه ومقروء الناس الذين يقرءون بقراءة مُصحف عثمان .

إذن فلا تغيير للحجاج فى كتاب الله ، ثم ما أهون مدلول ما نسبوه إلى الحجاج ، وهل كان بعد هذا غير تبيين رسم وتميزه ، وما أظن الحجاج خرج فيها على مصحف عثمان بقراءة أخرى ، بل أكاد أؤكد أنه التزم فيها مقروء مصحف عثمان ، وأنه لم يفعل غير التميز والتبيين بدليل تلك التى سقتها عن «لم يتسن» و«لم يتسنه» ، وأن الحجاج فيما فعل كان حريصاً على أن يمكن للمصحف الإمام وأن ينفى عنه ما عساه أن يكون دخل عليه من قراءات .

١٣ — القراءات

وقد مر بك الرأى فى القراءات السبع ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : نزل القرآن على سبعة أحرف — أى : على سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن[١].

ورُوى عن عمر أنه قال : نزل القرآن بلغة مضر .

وإذا رجعنا نُحصى قبائل مضر وجدناها سبع قبائل ، وهى : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش .

كما يُروى عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، واثنان لسائر العرب . والعجز هم : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وكان يقال لهم : عُليا هوازن .

كما يُروى عن أبى حاتم السجستانى أنه قال : نزل القرآن بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد ابن بكر .

كما يروى السيوطى فى الإتقان آراء غير مسندة ، منها :

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٢٦) .

١ — أنها سبع لغات متفرقة لجميع العرب ، كل حرف منها لقبيلة مشهورة .

٢ — أنها سبع لغات ، أربع لعجز هوازن ، وثلاث لقريش .

٣ — أنها سبع لغات ، لغة لقريش ، ولغة لليمن ، ولغة لجرهم ، ولغة لهوازن ، ولغة لقضاعة ، ولغة لتميم ، ولغة لطيء .

٤ — أنها لغة الكعبين : كعب بن عمر ، وكعب بن لؤى ، ولهما سبع لغات .

وهذا الخبر مسند لابن عباس من طريق آخر غير الطريق الأول الذى روى به خبره السابق .

وهذا الاختلاف فى التعيين لا يضير فى شيء ، فثم لغات سبع مفرقة فى القرآن ، أخبر الرسول عن جملتها ولم يخبر عن تفصيلها ، وكان هذا التفصيل مكان الاجتهاد بين المجتهدين .

وليس معنى الحديث أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة ، تقرأ قريش بلغتها ، وتقرأ هذيل بلغتها ، وتقرأ هوازن بلغتها ، وتقرأ اليمن بلغتها .

وفى ذلك يقول أبو شامة نقلا عن بعض شيوخه : أنزل القرآن بلسان قريش ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب[1] .

---

(١) الإتقان (ص ٤٧) .

ويعجبنى تعقيب لابن الجوزى على كون هذه الأحرف سبعة يقول : وأما وجه كونها سبعة أحرف دون أن لم تكن أقل أو أكثر ، فقال الأكثرون : إن أصول قبائل العرب تنتهى إلى سبعة ، وإن اللغات الفصحى سبع ، وكلاهما دعوى .

وقيل : ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السَّعة والتيسير ، وأنه لا حرج عليهم فى قراءته بما هو فى لغات العرب من حيث أن الله تعالى أذن لهم فى ذلك .

والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر[1]

وكانت هذه اللغات عِلمها إلى الرسول قد أحاطه الله بها علما ، وحين يقرأ الهذلى بين يديه «عتى حين» وهو يريد « حتى حين »[2] يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها .

وحين يقرأ الأسدى بين يديه « تسود وجوه »[3] بكسر التاء فى « تسود » ، و « ألم أعهد إليكم »[4] بكسر الهمزة فى « أعهد » يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

---

(١) النشر فى القراءات العشر (٢٥ ـ ٢٦)
(٢) المؤمنون : ٥٤ ـ الصافات : ١٧٤ و ١٧٨ ـ الذاريات : ٤٧
(٣) آل عمران : ١٠٦ (٤) يس : ٦٠

وحين يهمز التميمى على حين لا يهمز القرشى ، يجيزه لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « وإذا قيل لهم »[1] و « غيض الماء »[2] بإشمام الضم مع الكسر ، يجيزه لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل.

وحين قرأ قارئهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا » بإشمام الكسر مع الضم فى « ردت » ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « مالك لا تأمنا »[3] بإشمام الضم مع الإدغام فى ميم « تأمنا » يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل وتكليفه غير هذا عسير .

وحين يقرأ قارئهم « عليهم » و « فيهم » بالضم ، ويقرأ قارىء آخر « عليهمو » و فيهمو » بالصلة ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « قد أفلح » و « قل أوحى » و « خلوا إلى » بالنقل ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « موسى » و « عيسى » و « سبأ » بالإمالة وغيره يلطف ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

---

(١) البقرة : ١١ (٢) هود : ٤٤ (٣) يوسف : ١١

وحين يقرأ قارئهم « خبيراً » و « بصيراً » بالترقيق ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « الصلوات » و « الطلاق » بالتفخيم ، يجيزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل[1] .

ويفسر لك هذا ما روى عن عمر قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فأتيت به النبي صلى الله عليه فأخبرته ، فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت . فقال : هكذا أنزلت . ثم قال : هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرءوا منه ما تيسر[2] .

وكذلك يفسر لك هذا ما روى عن أُبيّ قال : دخلت المسجد أصلى فدخل رجل فافتتح « النحل » فقرأ ، فخالفنى فى القراءة . فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام يصلى ، فقرأ وافتتح النحل ، فخالفنى وخالف صاحبي ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبي صلى الله

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٣٠) ـ النشر فى القراءات العشر (١ : ٢٩)
(٢) المرجعان السابقان .

عليه وسلم . فقلت : استقرىء هذين ، فاستقرأ أحدهما . فقال : أحسنت . ثم استقرأ الآخر ، فقال : أحسنت .

ويقول ابن قتيبة : « ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلا لاشتدّ ذلك عليه ، وعظُمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان وقطع للعادة »[1] .

١٤ — القراء

ولقد كانت كتابة المصحف بلغة قريش أو بحرف قريش ، بذلك أمر عثمانُ زيدَ بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهم يَنسخون المصاحف ، وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم .

وأرسل عثمان المصاحف إلى الأمصار . وأخذ كل أهل مصر يقرءون بما فى مصحفهم ، يتلقون ما فيه عن الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان بالمدينة نفر ،

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٢٧) ـ النشر (١ : ٢١)

منهم : ابن المسيب ومعاذ بن الحارث وشهاب الزهرى ؛ وكان بمكة نفر ، منهم : عطاء ، وطاووس ، وعكرمة ؛ وبالكوفة نفر ، منهم : علقمة ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ؛ وبالبصرة نفر ، منهم : الحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ؛ وبالشام نفر ، منهم : المغيرة بن أبي شهاب المخزومى صاحب عثمان بن عفان .

ثم تجرد قوم للقراءة واعتنوا بضبطها أتم عناية حتى صاروا فى ذلك أئمة يُقتدى بهم ويُرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم بالقبول ولم يختلف عليهم فيها اثنان ، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم .

فكان بالمدينة نفر ، منهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم نافع بن أبي نعيم ؛ وكان بمكة نفر ، منهم : عبد الله بن كثير ، ومحمد بن محيصن ؛ وكان بالكوفة نفر ، منهم . سليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائى ؛ وكان بالبصرة نفر ، منهم : عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن العلاء ؛ وكان بالشام نفر ، منهم : عبد الله بن عامر ، وشريح بن يزيد الحضرمى[1] .

غير أن القراء بعد هذا كثروا وتفرقوا فى البلاد وانتشروا فى الأقطار ، وكاد يدخل على هذا العلم ما ليس فيه ، فشمر لضبطه وتنقيته أئمة مشهود لهم ، منهم :

---

(١) النشر (١ : ٨ — ٩)

١ — الإمام الحافظ الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان ابن سعيد الدانى ، من أهل دانية بالأندلس .وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وكتابه فى هذا الباب هو : التيسير .

٢ — الإمام المقرىء المفسر أبو العباس أحمد بن عمارة بن أبى العباس المهدوى المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة . وله كتاب الهداية.

٣ — الإمام أبو الحسن طاهر بن أبى الطيب بن أبى غلبون الحلبى ، نزيل مصر . وتوفى بها سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وله كتاب : التذكرة .

٤ — الإمام أبو محمد مكى بن أبى طالب القيروانى . وكانت وفاته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة ، وله كتاب : التبصرة .

٥ — الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبى شامة ، وله كتاب : المرشد الوجيز .

ولقد كان رائد هؤلاء جميعاً فيما أخذوا فيه أن كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت المصحف الإمام وصح سندها ، فهى قراءة صحيحة لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها .

وإذا اختل ركن من هذه الأركان كانت تلك القراءة ضعيفة أو شاذة أو باطلة .

وفى ظل هذه القيود التى أجمع عليها القراء :

١ — الموافقة للعربية ولو بوجه .

٢ — الموافقة للمصحف الإمام ، ولو احتمالا .

٣ — أن يصح سندها .

قام الأئمة بتأليف كتب فى القراءات ، وكان أول إمام جمع القراءات فى كتاب هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين . وقد جعل القراءات نحواً من خمس وعشرين قراءة ، وتوالى بعده أئمة مؤلفون جمعوا القراءات فى كتب ، منهم من جعلها عشرين ، ومنهم من زاد ومنهم من نقص ، إلى أن كان الأمر إلى أبى بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، فاقتصر على قراءات سبع لقراء سبع ، هم : عبد الله بن كثير ، فى مكة ؛ ونافع بن أبى رويم ، فى المدينة ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، فى البصرة ؛ وعاصم بن أبى النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى الكسائى ، فى الكوفة ؛ وعبد الله بن عامر ، فى الشام .

ثم جاء بعده من رفعها إلى عشر ، نذكر منهم إماما متأخراً وهو : ابن الجزرى أبو الخير محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، وكتابه هو : النشر فى القراءات العشر .

والقراء الثلاثة الذين زادوا على السبعة هم : يزيد بن القعقاع ، فى المدينة ؛ ويعقوب الحضرمى ، فى البصرة ؛ وخلف البزار ، فى الكوفة .

هذا غير قراء جاءوا بقراءات شاذة ، كان على رأسهم ابن شنبوذ ، المتوفى سنة ٣٢٨ ، ثم أبو بكر العطار النحوى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

١٥ — رأى ابن قتيبة فى القراءات

وقد لخص ابن قتيبة وجوه الخلاف فى القراءات ، وأحب أن أسوق إليك ما قال .

يقول ابن قتيبة[١] :

وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات فوجدتها سبعة أوجه :

أولها : الاختلاف فى إعراب الكلمة ، أو فى حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها فى الكتاب ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : « هؤلاء بناتى هن أطهرُ لكم » — هود : ٧٨ — و « أطهرَ لكم » بالنصب — و « هل نُجازى إلى الكفور » — سبأ : ١٧ — و « هل يُجازَى إلا الكفور » — و « يأمرون الناس بالبُخلِ » — النساء : ٣٧ ، الحديد : ٢٤ — و « بالبَخَل » بفتح الباء والخاء — و « فنَظِرة إلى مَيسرة » — البقرة : ٢٨٠ — و « ميسُرة » بضم السين .

ثانيها : أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها فى الكتاب ، نحو قوله تعالى : و « ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا » سبأ : ١٩ و « ربُّنا باعَدَ بين

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٨ ـ ٣٢)

أسفارنا » و « إذا تَلقونه بألسنتكم » النور : ١٥ — و «تَلِقُونه » بفتح فكسر فضم — و « وادٌ كربعد أُمّة » — يوسف : ٤٥ — و « أَمَهٍ » أى : نسيان .

ثالثها : أن يكون الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يُغيِّر معناها ولا يُزيل صورتها ، نحو قوله : « وانظر إلى العِظام كيف نُنشزها » — البقرة : ٢٥٩ — و « نُنشرها » بالراء — و « حتى إذا فُزِّع عن قُلوبهم » سَبأ : ٢٣ — و « فُرِّغ » بالراء والغين المعجمة .

رابعها : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يُغير صورتها فى الكتاب ولا يُغير معناها فى الكلام نحو قوله : « إن كانت إلا صَيْحةً واحدة » يَس : ٢٨ — و « زَقْية واحدة » — و « كالعِهْن المَنْفوش » — القارعة : ٥ — و « كالصُّوف » .

خامسها : أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يُزيل صورتها ومعناها ، نحو قوله « وطَلْعٍ مَنْضُود » — الواقعة : ٢٩ — و « طَلْح » .

سادسها : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله : « وجاءت سَكْرة الموت بالحق » — ق : ١٩ — وفى موضع آخر : « وجاءت سَكرة الحقّ بالموت » .

سابعها : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى « وما عَمِلت أيْديهم » ، و « وما عملته أيديهم » يس : ٣٥ ونحو قوله « إن الله هو الغنى الحميد » لقمان : ٢٦ — و « إن الله الغنى الحميد » .

ثم قال ابن قتيبة :

فإن قال قائل : هذا جائز فى الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحدا ، فهل يجوز أيضا إذا اختلفت المعانى ؟

قيل له : الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير واختلاف تضاد .

فاختلاف التضاد لا يجوز . ولست واجده بحمد الله فى شىء من القرآن إلا فى الأمر والنهى من الناسخ والمنسوخ .

واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله « وادّكر بعد أُمة » أى بعد حين ، و « بعد أمَهٍ » أى بعد نسيان له ، والمعنيان جميعا ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأن ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له .

وكقوله : « إذ تَلَقونه بألسنتكم » أى تَقبلونه وتقولونه ، و « تَلِقونه » من الولق ، وهو الكَذب ، والمعنيان جميعا ، وإن اختلفا ، صحيحان ؛ لأنهم قبلوه وقالوه وهو كذب .

وكقوله : « ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا » على طريق الدعاء والمسألة ،

و « ربُّنا باعَد بين أسفارنا » على جهة الخبر ، والمعنيان ، وإن اختلفا ، صحيحان .

وكقوله : «وأعتدت لهن مُتَّكأً» وهو الطعام ، و«وأعتدت لهن مُتْكَأً » بضم الميم وسكون التاء وفتح الكاف ، وهو الأترج . فدلت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام .

وكذلك « نَنْشرها » و « ننشزها » لأن الإنشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك للنقل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فزع عن قلوبهم » و « فرغ » لأن « فزع » : خفف عنها الفزع ، وفرغ : فرغ عنها الفزع .

ثم قال ابن قتيبة : وكل ما فى القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، فعلى مثل هذه السبيل .

١٦ — تعقيب على القراءات

والأمر فى القراءات كما يبدو لك ، ينحصر فى أحوال ثلاث :

الأولى — وهى تتصل بأحرف العرب أو لغاتها — وهى التى قدمنا منها مثلا فى الإمالة والإشمام والترقيق والتفخيم ، وغير ذلك مما لفظت به القبائل ولم تستطع ألسنتها غيره . وهذا الذى قلنا عنه : إنه المعنىّ بالأحرف السبعة التى جاءت فى الحديث .

وما من شك فى أن ذلك كان رُخصة للعرب يوم أن كانو لا يستطيعون غيره وكان من العسير عليهم تلاوة القرآن بلغة قريش .

ثم ما من شك فى أن هذه الرخصة قد فسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ وفُشو الضبط وتعلم القراءة والكتابة[1].

وأسوق إليك ماقاله الطبرى بعد ماسقت إليك ماقاله الطحاوى ، يقول الطبرى :

ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه اختلاف الناس فى القراءة وخاف من تفرق كلمتهم ، جمعهم على حرف واحد ، وهو هذا المصحف الإمام ، واستوثقت له الأمة على ذلك ، بل أطاعت ورأت أن فيما فعله الرشدَ والهداية ، وتركت القراءة بالأحرف السبعة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها ، طاعة منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها وعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها . فإن قال من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورُخصة .

---

(١) معانى الآثار للطحاوى أحمد بن محمد .

الثانية : وهى تتصل برسم المصحف وبقائه فترة غير منقوط ولامشكول إلى زمن عبد الملك ، حين قام الحجاج بإسناد هذا إلى رجلين ، هما : يحيى بن يعمر والحسن البصرى ، فنقطاه وشكلاه .

وما نرى صحيحاً هذا الذى ذهب إليه القراء من تأويلات كثيرة تكاد تُحمِّل الكلمة عشرين وجهاً أو ثلاثين أو أكثر من ذلك . حتى لقد بلغت طرق هذه القراءات للقراءات العشر فقط تسعمائة وثمانين طريقة .

فلقد كان اجتهاداً من القراء ، وكان إسرافاً فى ذلك الاجتهاد . وإنك لو تتبعت ما عقب به الزمخشرى فى تفسيره على القراء لوجدت له الكثير مما رده عليهم ولم يقبله منهم . فلقد عقب على ابن عامر فى قراءته لقوله تعالى : « وكذلك زُيِّن للمشركين قتلَ أولادهم شُركاؤهم » — الأنعام ١٣٧ — فلقد قرأها ابن عامر « قتلُ أولادهم شركائهم » برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء ، على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف .

فقال الزمخشرى : فهذا لو كان فى مكان الضرورات — وهو الشعر — لكان شيئاً مردوداً ، فكيف به فى الكلام المنثور ؛ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف « شركائهم » مكتوبا بالياء .

ويعقب الزمخشري مرة أخرى على أبي عمرو حين يدغم الراء في اللام في قوله تعالى « فيغفر لمن يشاء » — البقرة : ٢٨٤ ، آل عمران : ١٢٩ ، المائدة : ٢٠و٤٣ ، الفتح : ١٤ — فيقرؤها أبو عمرو : « فيغفلمن يشاء » ويقول الزمخشري : ومدغم الراء في اللام لاحن مخطىء خطأ فاحشاً ، وراويه عن أبي عمرو مخطىء مرتين ، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم .

وكذلك تتبع ابن قتيبة القراء وأحصى لهم الكثير ، وفي ذلك يقول :

وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حَرْفه من الغلط والوهم[1] .

ونحن حين نمكن لهذه القراءات أن تعيش نكون كمن يحاول أن يخرج على ما أراده عثمان ، ومعه عليّ من قبل ثم الصحابة ، على وحدة القرآن تلاوة . هذا بعد أن صح لنا أن هذه القراءات اجتهاد . وأن رسم المصحف وإهماله نقطاً وشكلا جَرّ إلى شيء منها .

يقول ابن قتيبة وهو يناقش بعض القراءات :

وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون غلطاً من الكاتب .

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص : ٤٣) .

فإن كانت على مذهب النحويين ، فليس ها هنا لحن بحمد الله .

وإن كانت خطأ فى الكتابة ، فليس على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم جناية الكاتب فى الخط .

ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع فى كتابة المصحف من طريق التهجى ، فقد كتب فى الإمام : « إن هذن لساحران » بحذف ألف التثنية . وكذلك ألف التثنية تحذف فى هجاء هذا المصحف فى كل مكان. وكتب كتّاب المصحف : الصلوة ، والزكوة ، والحيوة ، بالواو ؛ واتبعناهم فى هذه الحروف خاصةً على التيمن بهم[1] .

فنحن إذن بين رسم لكُتّاب كان ما رسموا آخر الجهد عندهم . ولقد حفظ الله كتابه بالحفظة القارئين أكثر مما حفظه بالكُتّاب الكاتبين ، ثم كانت إلى جانب الحِفْظ حُجة أخرى على الرسم ، وهى لغة العرب أقامت الرسم لتدعيم الحفظ ولم تُقم الحفظ لتدعيم الرسم . وكان هذا ما عناه عثمان : أرى فيه لحنًا وستُقيمه العرب بألسنتها. ولقد أقامته بألسنتها وتركت الرسم على حاله ممثلا فى مصحفه

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص ٤٠ ، ٤١) .

الإمام الذى كان حريصاً على أن تجتمع عليه الأمة الإسلامية . من أجل ذلك أحرق ما سواه .

غير أن ما فعله عثمان لم يقض على كل خلاف ، وأوسع فى هذا الخلاف بقاء المصحف الإمام غير منقوط ولامشكول ، كما قلت لك .

من أجل ذلك كان أول شيء عَمله الحجاج ، بعد ما فرغ من نقط المصحف وشكله ، أن وكل إلى عاصم الجحدرى ، وناجية ابن رُمح ، وعلى بن أصمع ، أن يتتبعوا المصاحف وأن يقطعوا كل مصحف يجدونه مخالفاً لمصحف عثمان ، وأن يعطوا صاحبه ستّين درهما . وفى ذلك يقول الشاعر :

وإلاّ رُسومَ الدار قَفْراً كأنها
كتاب محاه الباهليّ ابن أصمعا[1]

ونحن اليوم فى أيدينا هذا المصحف الإمام أقوم ما يكون ضبطا ، وأصح ما يكون شكلا ، فما أغنانا به عن كل قراءة لا يحملها رَسمه ، ولا يُشير إليها ضبطه ، من تلك القراءات التى كانت تلك حالها التى بَسطتها لك .

---

(١) تاويل مشكل القرآن (ص ٣٧)

الثالثة : وهى التى تتصل بإحلال كلمة مكان كلمة ، أو تقديم كلمة على كلمة ، أو زيادة أو نقصان .

وما أظن هذه تكون كلمة تُذكر بعد أن أصبح فى أيدينا المصحف الإمام ، هيأه لنا عثمان فى الأولى ، وزفه إلينا الحجاج فى الثانية ، وما كان هذان العملان إلا خطوتين : خطوة تدعم خطوة فى سبيل الوحدة الكاملة لكتاب الله ، كما حفظه الله على لسان الحفظة من الصحابة والتابعين .

وأحب أن أختم الحديث عن القراءات بقول الزركشى فى كتابه « البرهان » ، يقول الزركشى :

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان .

فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للبيان والإعجاز .

والقراءات السبع متواترة عند الجمهور . وقيل : بل مشهورة . والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة .

أما تواترها عن النبى صلى الله عليه وسلم ففيه نظر .

١٧ — رسم المصحف

ومن الناظرين فى رسم القرآن فريق صرفهم الإجلال له عن أن يفصلوا بين ما هو وحى من عند الله حَرَّك به لسانَ رسوله ، وبين ما صَوَّره كُتَّاب الرسول حروفاً وكلمات .

وأنت تعرف أن الكلمة الواحدة قد تختلف صورة رسمها على أيدى كَتَبة يَستملون عن مُمْل واحد ، إذا اختلفت طرق تلقيهم للإملاء ، غير أنهم حين يلفظون هذه الكلمة مُجمعون على نطق واحد .

وما من شك فى أن القرآن الكريم تَعرَّض رسمه لهذا الخلاف ، وكان حفظ الله له فى بقاء حَفظته ، يعى الناس عنهم أكثر ما يعون عن القراءة ، وكانوا بهذا مطمئنين ؛ وحين عدت العاديات على الحفظة بدأ الخوف يدب ، وبدأ تفكير الصحابة يتجه إلى ما هو أبقى ، أعنى جمع القرآن مكتوبا .

وكانت محاولة أبى بكر وعمر التى مرت بك ، واجتمع للناس قرآنُهم مكتوبا ، وبدأ شُغلهم بما هو مكتوب يزحم شُغلهم بما هو مَتْلو أو يُعادله . وأخذ الرسم يُملى برسمه ويُقوِّمه الحفظ فى فترة لم يكن الصحابة فيها أبعدوا كثيراً عن فَترة نزول القرآن .

وما كانت الأمة العربية عهدَ كتابة الوحى أمة عريقة فى الكتابة ،

وما كان كتاب النبي إلا صورة من العصر البادىء فى الكتابة ، ولم تكن الكتابة العربية على حالها اليوم من التجويد والكمال إملاء ورسما . ونظرة فى رسم المصحف ، وما يحمل من صور إملائية تخالف ما استقر عليه الوضع الإملائى أخيراً ، تكشف لك عما كان العرب عليه إملاء ، وعما أصبحنا عليه نحن إملاء .

وحين أطل عهد عثمان كاد اختلاف الناس فى قراءة المرسوم يجر إلى خروجهم على المحفوظ ، من أجل هذا فزع عثمان إلى نفر من الصحابة كتبوا للرسول وحيه ، ليدركوا هذا المرسوم ، كى يخرجوا منه بصورة خطية تصور ما أجمع عليه الحفاظ .

وقد لا يفوتك أن الخط العربى عصر كتابة الوحى إلى أيام عبد الملك بن مروان لم يكن عرف النقط المميز للحروف فى صورته الأخيرة ، كما لم يكن عرف شكل الكلمات ، وبقى المصحف المرسوم ينقصه النقط فى صورته الأخيرة وينقصه الشكل ، وعاش يحميه حفظ الحفاظ من اللحن . غير أن الأمة العربية كانت قد انتشرت وأظل الإسلام تحت لوائه أمماً مختلفة ، وأصبح الحفظ فى هذه البيئة الواسعة وبين هؤلاء الأقوام المختلفين لا يُغنى غناءه أيام أن كانت البيئة محدودة والأقوام غير مختلفين . من هنا كان لابد من نقط وشكل على يد الحجاج كما مر بك .

ولقد كانت هذه المراحل التى مر بها جمع القرآن وكتابته ونقطه وشكله نتيجةً لقصور الكتابة العربية والخط العربى . إذ لو كانا فى كمالهما اليوم لما احتاج القرآن فى رسمه إلى مرحلة بعد مرحلة ، ولكُتب يوم أن كتب للمرة الأولى فى صُورة أخيرة .

ونحن بحمد الله ، على الرغم من بُعد عهدنا بنزول القرآن ، لم نبعد عن وعيه كما أنزل ، تصديقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، غير أنه يجب أن يلفتنا إلى قرآننا ما لفت الشيخين عمر وأبا بكر إليه ، ثم ما لفت عثمان إليه ، ثم ما لفت الحجاج إليه . فهذه لفتات أحسّ فيها أصحابها الخوف من أن يمس القرآن سُوء ، جمعوه للناس مكتوبا يوم أن خافوا ذهاب الحُفاظ . ثم جمعوا الناس على مصحف واحد يوم أن خافوا تفرق الناس على مصاحف ، ثم نَقطوه وضبطوه يوم أن خافوا أن يتفرق الناس فى قراءته .

هذه كلها خطوات واعية من أناس واعين بإلهام ربٍّ معين . وأخشى ما نخشاه نحن اليوم أو بعد اليوم أن يبقى القرآن برسمه القديم الذى يختلف وإملاء العصر فيخلق بهذا بَلبلة على الألسن ، وما نحن فى كل بيئة نملك حُفاظا يضبطون الألسنة عن أن تلتوى . وإن ملكنا فى كل بيئة حُفاظا فمحال أن يجد كل قارىء حافظاً إلى جواره .

يجب أن نخاف ما خافه السلف ، ويجب أن نحتاط كما احتاط السلف ، ويجب أن نفصل بين وحى الله وأقلام الكتاب . وما أظن أن تَيمننا بخط من سلف يُغرينا بمزيد من حِرص عليه قد يجرنا إلى ما لا نحب .

كما لا أظن أن شيئاً كهذا يثير بين الفاظرين فى رسم القرآن جدلا ، فالحق فيه بيِّن ، وقد نادى به السلف العالمون العاملون ، ممن قدَّمت لهم نقولا فى ذلك .

١٨ ــ كتابة المصحف وطبعه

مر بك كيف كان الوحى يكتب ، وعلى أى شىء كان يكتب ، ثم من كانوا كُتّابه .

ومر بك أيضاً كيف جمعه أبو بكر وعمر ، ثم كيف كتب عثمان مصحفه الإمام ، وأرسل منه مصاحف أربعة إلى الأمصار : مكة والبصرة والكوفة والشام ، وأنه أبقى اثنين آخرين فى المدينة ، اختص نفسه بواحد منهما .

ومنذ أن دخلت هذه المصاحف الأمصار أقبل المسلمون ينسخونها ، ولقد نسخوا منها عدداً كثيرا لا شك فى ذلك .

فنحن نقرأ للمسعودى وهو يتكلم على وقعة صفين ، التى كانت بين على ومعاوية ، وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف ،

حين أحس ظهور علىّ عليه : ورُفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف(١) .

وما نظن هذا العدد الذى رفع من المصاحف فى معسكر معاوية كان كل ما يملكه المسلمون حينذاك . والذى نظنه أنه كان بين أيدى المسلمين ما يُربى على هذا العدد بكثير . هذا ولم يكن قد مضى على كتابة عثمان لمصحفه الإمام وإرساله إلى الأمصار ما يزيد على سنين سبع .

والجديد الذى أحب أن أسوقه هنا نقلا عمن نظروا فى نشأة الخط العربى(٢) أن العرب كانوا قبيل الإسلام يكتبون بالخط الحيرى — نسبة إلى الحيرة — ثم سمى هذا الخط بعد الإسلام بالخط الكوفى .

وهذا الخط الكوفى فرع — كما يقولون — من الخط السريانى ، وأنه على الأخص طور من أطوار قلم للسريان كانوا يسمونه « السطر نجيلى » ، وكان السريان يكتبون به الكتاب المقدس ، وعن السريان انتقل إلى العرب قبل الإسلام ، ثم كان منه الخط الكوفى ، كما ذكرت لك .

---

(١) مروج الذهب (٢ : ٢٠)

(٢) كشف الظنون (١ : ٧١٠ ـ ٧١٤) فهرست ابن النديم (٢٤ ـ ٢٦) الخط العربى لخليل نامى : تاريخ الخط العربى لمحمد طاهر الكردى .

ولقد كان للعرب إلى جانب هذا القلم الكوفى قلم نَبطى ، انتقل إليهم من حوران مع رحلاتهم إلى الشام . وعاش العرب ولهم هذان القلمان : الكوفى والنبطى ، يستخدمون الكوفى لكتابة القرآن ، ويستخدمون النبطى فى شئون أخرى .

وبالخط الكوفى كان كَتب المصاحف ، غير أنه كان أشكالا ، واستمر ذلك إلى القرن الخامس تقريباً ، ثم ظهر الخط الثلث وعاش من القرن الخامس إلى ما يقرب من القرن التاسع إلى أن ظهر القلم النسخ الذى هو أساس الخط العربى إلى اليوم .

فلقد كتب القرآن بالكوفى أيام الخلفاء الراشدين ، ثم أيام بنى أمية . وفى أيام بنى أمية صار هذا الخط الكوفى إلى أقلام أربعة . ويعزون هذا التشكل فى الأقلام إلى كاتب اسمه قطبة وكان كاتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف .

وفى أوائل الدولة العباسية ظهر الضحاك بن عجلان ومن بعده إسحاق بن حماد ، فإذا هما يزيدان على قطبة ، وإذا الأقلام العربية تبلغ اثنى عشر قلما : قلم الجليل ، قلم السجلات ، قلم الديباج ، قلم اسطورمار الكبير ، قلم الثلاثين ، قلم الزنبور ، قلم المفتتح ، قلم الحرم ، قلم المؤامرات ، قلم العهود ، قلم القصص ، قلم الحرفاج .

وحين ظهر الهاشميون حدث خط يسمى : العراق ، وهو المحقن . ولم تزل الأقلام تزيد إلى أن انتهى الأمر إلى المأمون فأخذ كتابه

بتجويد خطوطهم ، وظهر رجل يعرف بالأحول المحرر ، فتكلم على رسوم الخط وقوانينه وجعله أنواعا .

ثم ظهر قلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياس ، نسبة إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلبة .

فزادت الخطوط على عشرين شكلا ولكنها كلها من الكوفى . حتى إذا ما ظهر ابن مقلة « ٣٢٨ هـ » نقل الخط من صورة القلم الكوفى إلى صورة القلم النسخى وجعله على قاعدة جميلة كانت أساساً لكتابة المصاحف .

وينقل المقرى عن ابن خليل السكونى أنه شاهد بجامع العديس بإشبيلية ربعة مصحف فى أسفار ينحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه ، وأن أبا الحسين بن الطفيل ابن عظيمة قال له : هذا خط ابن مقلة .

ثم يقول المقرى وقد رأيت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً بخط ياقوت المستعصمى [1] .

ولقد كانت وفاة ياقوت هذا سنة ٦٩٨ هـ . وكان سباقاً فى هذا الميدان .

ويقول محمد بن إسحاق : أول من كتب المصاحف فى الصدر

---

(١) نفح الطيب (٦/٤٠)

الأول ويوصف بحسن الخط : خالد بن أبى الهياج . رأيت مصحفاً بخطه ، وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد ابن عبد الملك ، وهو الذى كتب الكتاب الذى فى قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالذهب من «والشمس وضحاها» إلى آخر القرآن .

ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال له : أريد أن تكتب لى مصحفاً على هذا المثال . فكتب له مصحفاً تنوق فيه . فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه .

ومالك بن دينار مولى أسامة بن لؤى بن غالب ، ويكنى أبا يحيى. وكان يكتب المصاحف بأجر . ومات سنة ثلاثين ومائتين .

ثم أورد ابن اسحاق نفرا من كتاب المصاحف بالخط الكوفى وبالخط المحقق المشق ، وقد رآهم جميعاً .

والذى لاشك فيه أن هذه الأقلام المختلفة تبارت فى كتابة المصحف ، كما كتب بأقلام غير هذه ذكر منها الكردى فى كتابه « تاريخ الخط العربى » قلمين هما : سياقت ، وشكسته ، وأورد لهما نماذج فارجع إليها إن شئت .

وظلت المصاحف على هذه الحال إلى أن ظهرت المطابع سنة ١٤٣١، وكان أول مصحف طبع بالخط العربى فى مدينة همبرج بألمانيا ثم فى البندقية فى القرن السادس عشر الميلادى .

وحين أخذت المطابع تشيع كثر طبع المصحف ، إذ هو كتاب المسلمين الأول وعليه معتمدهم .

١٩ — تجزئة المصحف

ولقد سقنا لك الحديث عن عدد سور القرآن وعدد كلماته وعدد حروفه . وما نظن هذا كله بدأ مع السنين الأولى أيام كان المسلمون مشغولين بجمع القرآن وتدوينه ، عهدَ أبى بكر وعمر ثم عهد عثمان ، وما نظنه إلا تخلّف زمناً بعد هذا إلى أيام الحجاج .

ولقد كان المسلمون والوحى لا يزال متصلا يختصون يومهم بنصيب من القرآن ، يخلون إلى أنفسهم ساعة من يومهم هذا يتلون فيها ما تيسر ، يفرض كل منهم على نفسه جزءاً يعينه ، وإلى هذا يشير ما روى عن المُغيرة بن شعبة قال : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين مكة والمدينة فقال : إنه قد فاتنى الليلة جزئى من القرآن فإنى لا أوثر عليه شيئاً[1] .

وما نشك فى أن هذه التجزئة كانت فردية ، أى إن مرجعها كان لكل فرد على حدة . ونكاد نذهب إلى أنها لم تكن على التساوى .

وهذه التجزئة التى أخذ فيها المسلمون مبكرين ليجعلوا للقرا ن

---

(١) للصاحف (ص : ١١٨)

حظا من ساعات يومهم حتى لا يغيبوا عنه فيغيب عنهم ، وحتى ييسروا على أنفسهم ليمضوا فيه إلى آخره أسبوعاً بعد أسبوع ، أو شهراً بعد شهر ، هذه التجزئة الأولى غير المضبوطة هى التى أملت على المسلمين بعد فى أن يأخذوا فى تجزئة القرآن تجزئة تخضع لمعايير مضبوطة ، ولم يكن عليهم ضير فى أن يفعلوا .

عند هذه ، وبعد أن استوى المصحف بين أيديهم مكتوبا ، كان عد السور وعد الكلمات وعد الآيات . ولا يدفع هذا أن المسلمين الأول أيام الرسول كانوا بعيدين البعد كله عن هذا كله ، بل إن ما نعنيه هو الإحصاء المستوعب الشامل ، وأما غيره فما نظننا ننكره على المسلمين الأول ، من ذلك ماروى عن ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من الثلاثين من آل حم . يعنى الأحقاف .

وأزيدك بعد هذا شيئاً أنقله لك عن السيوطى لتشاركنى رأيى ، قال السيوطى : كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين[1] .

وأرانى قد ذكرت لك فى بدء هذا الحديث أن هذا الاستيعاب الشامل لم يكن إلا مع أيام الحجاج ، وأحب أن أسوق إليك دليلى عليه :

---

(١) الإتقان (١ : ٦٦)

يروى أبو بكر بن أبى دواد يقول : جمع الحجاج بن يوسف الحفاظ والقراء — ويقول أبو بكر : وكنت منهم — فقال الحجاج : أخبرونى عن القرآن كله كم هو من حرف ؟ قال أبو بكر : فجعلنا نحسب حتى أجمعوا أن القرآن ثلاثمائة ألف حرف وأربعين ألفا وسبعمائة ونيف وأربعين حرفا — قال الحجاج : فأخبرونى إلى أى حرف ينتهى نصف القرآن . فحسبوا فأجمعوا أنه ينتهى فى الكهف « وليتلطف » — الآية ١٩ — فى الفاء . قال الحجاج : فأخبرونى بأسباعه على الحروف ؟ قال أبو بكر : فإذا أول سُبع فى النساء « فمنهم من آمن به ومنهم من صد » — الآية ٥٥ — فى الدال . والسبع الثانى فى الأعراف « أولئك حبطت » — الآية ١٤٧ — فى التاء . والسبع الثالث فى الرعد « أكلها دائم » — الآية ٣٥ — فى الألف آخر « أكلها » الآية ٣٢ . والسبع الرابع فى الحج « لكل أمة جعلنا منسكا » — الآية ٣٤ — فى الألف . والسبع الخامس فى الأحزاب « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » — الآية ٣٦ — فى الهاء . والسبع السادس فى الفتح « الظانين بالله ظن السوء » — الآية ٦ — فى الواو . والسابع ما بقى من القرآن . قال الحجاج : فأخبرونى بأثلاثه ؟ قالوا : الثلث الأول رأس مائة من براءة . والثلث الثانى رأس إحدى ومائة آية من طسم الشعراء . والثلث الثالث ما بقى

من القرآن . ثم سألهم الحجاج عن أرباعه فإذا أول ربع خاتمة سورة الأنعام . والربع الثانى الكهف « وليتلطف » — الآية ١٩ — والربع الثالث خاتمة الزمر . والربع الرابع ما بقى من القرآن .

كانت هذه نظرة الحجاج مع القُراء والحفاظ ، وكانت تجزئته للقرآن وفق عدد حروفه . ولقد رأيناه كيف جزأه نصفين ، ثم أسباعا ، ثم أثلاثا ، ثم أرباعا .

وما نظن الحجاج كان يستملى فى هذه التجزئة إلا عن تفكير فى التيسير ، فجعله نصفين على القارىء المجد ، ثم أثلاثا على اللاحق ، ثم أرباعا على من يتلو اللاحق ، ثم أسباعا على من يريد أن يتمه فى أسبوع ، وكانت تلك هى النهاية التى أحبها الحجاج للمسلمين ، وكأنه لم يحب لهم أن يتجاوزوها ، لذلك لم يمض مع القراء والحفاظ يسألهم عما بعدها . ونحن نعلم أن الحجاج كان يقرأ القرآن كله فى كل ليلة(١) .

وحين نظر الحجاج فى القرآن يجزئه هذه التجزئة التى تحدها الحروف ، بدأ غيره من بعده ينظرون فى تجزئة القرآن تجزئة تمليها الآيات ، فقسموه أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً وأخماساً وأسداساً وأسباعاً وأثماناً وأتساعاً وأعشاراً .

---

(١) المصاحف (ص ١١٩ ـ ١٢٠)

وما نظن هؤلاء الذين جاءوا فى إثر الحجاج بهذه التجزئة التى تخالف تجزئة الحجاج كانوا يستملون إلا عن مثل ما استملى الحجاج عنه ، وهو التيسير ، ثم الإرخاء فى هذا التيسير ، ثم تخصيص كل يوم بنصيب لا يزيد ولا ينقص ، وكان أقصى ما أرادوه لكل مسلم أن يتم قراءة القرآن فى أيام لا تعدو العشرة .

ولقد مر بك قبلُ عند الكلام على عد آيات القرآن ما كان من خلاف يسير علمت سببه ، وأحبك أن تعلم أن هذا الخلاف اليسير فى عد الآيات جر إلى خلاف يسير فى هذه التجزئة .

وإذ كانت فكرة الحجاج ، وفكرة من جاء بعد الحجاج ، فى تجزئة القرآن هى التيسير على التالى — كما أرى — وكان الحجاج متشدداً ، متشدداً على نفسه أولا ، كما رأيت ، فلم يجاوز فى تيسيره إلى غير سبعة أيام ، ولكن من جاءوا بعد الحجاج لم يكونوا على تشدد الحجاج فأرخوا شيئاً فى التيسير وزادوها إلى عشرة .

وما وقف التيسير عند هذا الحد الذى انتهى إليه من جاءوا فى إثر الحجاج ، بل نرى الميسرين أرخوا للقارئين إلى أن بلغوا بهم الثلاثين ، فإذا القرآن يجزأ إلى ثلاثين جزءاً .

غير أن هذه المراحل التى جاءت بعد الحجاج لم تتم فى يوم وليلة ، بل امتدت بامتداد الأيام ، ولقد كانت وفاة الحجاج

فى العام الخامس والتسعين من الهجرة ، ونرى السجستانى يروى أخباره فى تجزئة القرآن تلك التجزئة الثانية عن رُواة تنحصر وفاتهم فى القرن الثانى للهجرة . ثم نرى ابن النديم وهو يتكلم عن الكتب المؤلفة فى أجزاء القرآن يذكر لنا :

١ — كتاب أسباع القرآن لحمزة بن حبيب بن عمارة الزيات . ولقد كانت وفاة حمزة سنة ١٥٨ هـ .

٢ — كتاب أجزاء ثلاثين ، عن أبى بكر بن عياش ، ولقد كانت وفاة أبى بكر بن عياش سنة ١٩٣[1] هـ

وما يعنينا الكتاب الأول ، فلقد علمنا أن تجزئة القرآن أسباعا، كانت على يد الحجاج حروفاً ، وقد تكون على يد حمزة آيات ، أقول : لا تعنينى هذه ولكن تعنينى الثانية ، فهى تدلنا على أن تجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً ، وهى التجزئة التى عليها مصاحفنا اليوم ، تجزئة قديمة انتهت إلى أبى بكر ، بهذا يشعرنا أسلوب ابن النديم ، إذ لم يَعْزِ الكتاب لأبى بكر وإنما قال : عن أبى بكر .

إذن فتجزئة القرآن ثلاثين جزءاً لم تغب عن القرن الثانى الهجرى ، ولا يبعد أن تكون دون منتهاه بكثير ، فلقد كان مولد أبى بكر سنة ست وتسعين من الهجرة ، والرجل يصلح للتلقى

---

(١) الفهرست (ص ٥٥) طبعة مصر .

والرواية مع الخامسة والعشرين من عمره ، أى إن أبا بكر كان رجل رواية وتلقٍّ مع العام العشرين بعد المائة الأولى من الهجرة .

وهذه التجزئة الأخيرة ، أعنى تجزئة القرآن ثلاثين جزءاً ، هى التجزئة التى غلبت وعاشت ، ولعل ما ساعد على غلبتها يسرها ثم ارتباطها بعدد أيام الشهر ، ونحن نعلم كم تجد هذه التجزئة إقبالا عظيما فى شهر رمضان من كل عام . وما نظن الذين جزءوا انتهوا إلى هذه التجزئة الأخيرة فى مرحلة واحدة متجاوزين التجزئة العشرية إلى التجزئة الثلاثينية ، والذى نقطع به أنه كانت ثمة تجزئات بين هاتين المرحلتين لا ندرى تدرجها ، ولكن يعنينا أن نقيد أن ثمة تجزئة تقع فى عشرين جزءاً ؟ تحتفظ بها مكتبة دار الكتب .

وبهذه التجزئة — أى إلى ثلاثين جزءاً — أصبح القرآن يعرض أجزاء منفصلة كل جزء على حدة ، وأصبحنا نراه فى المساجد لا سيما فى شهر رمضان محفوظاً فى صناديق بأجزائه الثلاثين ، كل مجموعة فى صندوق يقدمه الراغبون فى الثواب إلى الوافدين إلى المساجد رغبة فى تلاوة نصيب من القرآن .

وأصبح يطلق على هذه الأجزاء الثلاثين اسم ربعة . والربعة فى اللغة : الصندوق أو الوعاء من جلد . ولعل تسمية الأجزاء الثلاثين بهذا الاسم جاءت من إطلاق المحل على الحال فيه .

ولكن هذا التيسير الأخير جرّ إلى تيسير آخر يتصل به ، وما نشك فى أن الدافع إليه كان التيسير على الحافظين ، بعد أن كان التيسير على القارئين ، وفرق بين أن تيسر على قارىء وبين أن تيسر على حافظ .

من أجل هذه فيما نظن كان تقسيم الأجزاء الثلاثين إلى أحزاب، كل جزء ينقسم إلى حزبين ، ثم تقسيم الحزب إلى أرباع ، كل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع .

وعلى هذا التقسيم الأخيرة طبعت المصاحف ، واعتمد هذا التقسيم على الجانب الراجح بين القراء فى عدد الآيات ، فأنت تعلم هذا الخلاف الذى بينهم .

فالمدنيون الأول يعدون آيات القرآن	٦٠٠٠ آية
والمدنيون المتأخرون يعدون آيات القرآن	٦١٢٤ آية
والمكيون المتأخرون يعدون آيات القرآن	٦٢١٩ آية
والكوفيون يعدون آيات القرآن	٦٢٦٣ آية
والبصريون يعدون آيات القرآن	٦٢٠٤ آية
والشاميون يعدون آيات القرآن	٦٢٢٥ آية

وفى هذا الخلاف كان ثمة ترجيح وثمة اتفاق وثمة تغليب . وقد انبرى لهذه السفاقسى فى كتابه غيث النفع . ولقد اعتمد

السفاقسى على رجلين سبقاه فى هذه الصناعة . هما أبو العباس أحمد ابن محمد بن أبى بكر القسطلانى فى كتابه « لطائف الإشارات فى علم القراءات » ، والقادرى محمد ، وكتابه « مسعف المقرئين ومعين المشتغلين بمعرفة الوقف والابتداء » ، وانتهى إلى الرأى الراجح أو المتفق عليه ، وبهذا أخذ الذين أشرفوا على طبع المصحف طبعته الأخيرة فى مصر ، وخرج يحمل الإشارات الجانبية الدالة على مكان الأجزاء والأحزاب وأرباع الأحزاب .

٢٠ ــ الاستعاذة

ولا خلاف بين العلماء أن القارىء للقرآن مطلوب منه عند البدء فى القراءة أن يتعوذ ، والصيغة المختارة للتعوذ هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعند الجمهور أن التعوذ على الندب لا على الوجوب .

ثم لا خلاف بين العلماء فى الجهر بها عند البدء فى القراءة لأنها شعارها .

٢١ - الناسخ والمنسوخ

النسخ لغة إبطال الشيء ورفعه . والمتكلمون عن النسخ فى القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب :

١ — ما نسخ خطه وحكمه . و يَروون فى ذلك عن أنس أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليها رابعاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فحفظتها وكتبتها فى مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منها بشيء ، وغدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : يابن مسعود تلك رُفعت البارحة .

وهذا عندى قسم يكاد سَرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيما عليما . وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيما سيُنقض بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء . ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى حرصاً على سلامة الوحى من أن

يختلط به غيره ، وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين يلقى بما عنده الرسول ، أو صحابيا على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور ، وسرعان ما كان يبين هذا من ذاك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرضة الأخيرة للقرآن ، ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢ — ما نسخ خطه وبقى حكمه . ويروون لهذا خبراً عن عمر بن الخطاب يقول :

لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت اية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا عنه ، وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيجعل منه شاهداً معه ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مجزىء ، اللهم إن هذا ينقض علينا ذاك التحرى فى الجمع الذى قام به الصحابة ، وينقض علينا تلك المعارضات التى كانت تتم بين الرسول والقارئين ، وينقض

علينا التفكير السليم . وما نحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ — ما نسخ حكمه وبقى خطه — وهذا شىء يقتضيه التشريع والانتقال من حكم إلى حكم ، مثال ذلك الآيات التى تتصل بالقبلة والتى انتهت بقوله تعالى يخاطب نبيه « فول وجهك شطر المسجد الحرام » وكانت قبلها « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

ومثل قوله تعالى « إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فجاء قوله عليه الصلاة « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » يستثنى شيئاً من الميتة المذكورة فى القرآن .

وقد عد الناظرون فى هذا نحواً من ١٤٤ ، منها :

(١) ثلاثون آية فى البقرة (٢) عشر آيات فى آل عمران
(٣) أربع وعشرون آية فى النساء
(٤) تسع آيات فى المائدة (٥) خمس عشرة آية فى الأنعام
(٦) آيتان فى الأعراف (٧) ست آيات فى الأنفال
(٨) إحدى عشر آية فى التوبة (٩) ثمانى آيات فى يونس
(١٠) أربع آيات فى هود (١١) آيتان فى الرعد
(١٢) آية فى إبراهيم (١٣) خمس آيات فى الحجر
(١٤) أربع آيات فى النحل (١٥) ثلاث آيات فى بنى اسرائيل

(١٦) آية فى الكهف (١٧) خمس آيات فى مريم
(١٨) ثلاث آيات فى طه (١٩) ثلاث آيات فى الأنبياء
(٢٠) ثلاث آيات فى الحج (٢١) آيتان فى المؤمنين
(٢٢) سبع آيات فى النور (٢٣) آيتان فى الفرقان
(٢٤) آية واحدة فى النمل (٢٥) آية واحدة فى القصص
(٢٦) آيةواحدةفى العنكبوت (٢٧) آية واحدة فى الروم
(٢٨) آية واحدة فى السجدة (٢٩) آيتان فى الأحزاب
(٣٠) آية واحدة فى سبأ (٣١) آية واحدة فى الملائكة
(٣٢) أربع آيات فى الصافات (٣٣) آيتان فى ص
(٣٤) ثلاث آيات فى الزمر (٣٥) آيتان فى حم « المؤمن »
(٣٦) آية واحدة فى حم « السجدة »
(٣٧) سبع آيات فى الشورى (٣٨) آيتان فى الزخرف
(٣٩) آية واحدة فىالدخان (٤٠) آيتان فى الجاثية
(٤١) آيتان فى الأحقاف (٤٢) آيتان فى محمد
(٤٣) آيتان فى ق (٤٤) آيتان فى الذاريات
(٤٥) آيتان فى الطور (٤٦) ا يتان فى النجم
(٤٧) آيه واحدة فى القمر (٤٨) آية واحدة فى المجادلة
(٤٩) ثلاث آيات فىالامتحان (٥٠) آيتان فى القلم
(٥١) آيتان فى المعارج (٥٢) ست آيات فى المزمل

(٥٣) آيتان فى الإنسان (٥٤) آية واحدة فى عبس
(٥٥) آية واحدة فى التكوير (٥٦) آية واحدة فى الطارق
(٥٧) آية واحدة فى الغاشية (٥٨) آية واحدة فى التين
(٥٩) آية واحدة فى العصر (٦٠) آية واحدة فى الكافرين

فهذا بيان الآيات التى فيها نسخ تستطيع أن ترجع إلى تفصيلها فى كتب النسخ ، مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبى القاسم هبة الله بن سلامة المتوفى سنة ٤١٠ من الهجرة ، ثم فى كتب التفسير.

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى الذى أملاه نزول القرآن مجزءاً وفق أحوال المسلمين وتدرجهم فى الحياة ، الأمر الذى قدمنا عنه حديثاً عند الكلام على نزول القرآن مجزءاً لا جملة واحدة .

٢٢ ــ الحروف المقطعة فى أوائل السور

ويعَد المفسرون هذا من المتشابه فى القرآن الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، غير أن ابن قتيبة يرى أن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ويدُل به على معنًى أراده . ويقول : فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال وتعلّق علينا بعلة .

ويمضى ابن قتيبة فى حديثه فيقول : وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه ، وإذا جاز

أن يعرفه مع قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته . فقد علّم عليًّا التفسير .

ودعا لابن عباس فقال : اللهم علمه التأويل وفقهه فى الدين .

ثم يقول ابن قتيبة : وبعد . فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شىء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرّوه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة فى أوائل السور .

ويقول ابن قتيبة فى تفسير قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » : فإن قال قائل : كيف يجوز فى اللغة أن يعلمه الراسخون فى العلم ، وأنت إذا أشركت الراسخين فى العلم انقطعوا عن « يقولون » وليست ها هنا واو نسق توجب للراسخين فعلين ؟ قلنا له : إن « يقولون » ها هنا فى معنى الحال ، كأنه قال : « والراسخون فى العلم قائلين آمنا به »[1].

والمفسرون مختلفون فى تفسير هذه الحروف المقطعة .

١ — فمنهم من يجعلها أسماء للسور ، تُعرف كل سورة بما افتتحت به منها . فهى أعلام تدل على ماتدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها ، فإذا قال القائل : قرأت « الص » أو قرأت « ص » أو « ن » دل بذلك على ما قرأ .

---

(١) تاويل مشكل القرآن (٧٢ — ٧٣)

هذا هو المصحف الذى يتطلبه عصرنا اليوم ، ويطلبه منا مسلم اليوم ، والتقصير فى إسعاف العصر والمسلمين به جرم .

ثم ما أحبّ إلى وإلى كل مسلم أن يكون كتاب الله غير معجز برسمه ، فهو للبادىء كما هو للراسخ فى العلم ، وما أظننا نكون مع الخير إذا باعدنا بين المسلمين وبين كتابهم .

فهرس

الباب الأول

الرسول

	صفحة
تمهيد	٥
رسول الله	٧
الجزيرة العربية قبل الرسالة	١٢
الإرهاص بميلاد الرسول	١٤
رسالة محمد	١٧
بدء الدعوة	٢٠
الأنصار	٢٦
غزوات الرسول	٢٩
عرض لحياة الرسول	٣٨
كتاب الله	٤٤

الباب الثانى

القرآن الكريم

أمية الرسول	٤٧
نزول الوحى	٥٢
عدد الآيات	٥٥
ترتيب الآيات	٦٢
أسماء السور	٦٧

صفحة

ترتيب السور ٦٨
الحكمة فى نزول القرآن منجما ٨٠
الوحى ونزول القرآن على سبعة أحرف ٨٣
اسم كتاب الله ٨٤
جمع القرآن ٨٦
مصحف عثمان ٨٨
كتب المصحف ٩٩
القراءات ١١٨
القراء ١٢٣
رأى ابن قتيبة فى القراءات ١٢٧
تعقيب على القراءات ١٣٠
رسم المصحف ١٣٧
كتابة المصحف وطبعه ١٤٠
تجزئة المصحف ١٤٥
استعاذة ١٥٣
الناسخ والمنسوخ ١٥٤
الحروف المقطعة فى أوائل السور ١٥٨
علوم القرآن ١٦١

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩-٣١٥١٠١ - برقيًا: دارشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيًا: شروق القاهرة - تلكس: 93091 SHROK UN